الفصل الرابع

النهروان في العهد الإسلامي

[قاطول الرشيد]

١ - تمهيد

ننتقل الآن الى الدور الاسلامي العربي ، وهو الدور الذي يهمنا بصورة خاصة ، لما له من صلة بمدينة سامراء العباسية ، وبمشاريعها العمرانية .

يمتاز هذا الدور بتوفر بعض المعلومات التاريخية التي دوّنها المؤرخون وجغرافيوا العرب عنه، ويمكن الاستعانة بهذه المعلومات لاستكمال تحققاتنا عن الوضع الذي كان عليه « النهروان » في هذا الدور . لقد وجد العرب بعد استيلائهم على العراق تنظيمات الري التي كان أسسها الساسانيون من قبلهم قد أصابها بعض الشلل والانحطاط بنتيجة العوامل الطبيعية كالفيضان العظيم الذي حدث في سنة ٦٢٩ الميلاديه ، ثم العوامل السياسية وهي تضعضع دولاب الحكم الساساني وتغلغل الفوضى والفساد في قلب مملكة ساسان في عهدها الاخير ، وأخيراً العوامل العسكرية ، وهي ظروف الحرب بين الرومان والفرس أولاً ثم ظروف الحرب بين العرب والفرس قبيل الفتح الاسلامي ، الظروف التي عرقلت استمرار المجهود الزراعي في البلاد بنتيجة إهمال أعمال السدود والتطهيرات وغيرها من الاعمال الضرورية لصيانة مشاريع الري من الاضمحلال والتدهور . ولكن ما كاد يستتب الأمن ويستقر الحكم للعرب حتى أخذوا يهتمون بأعمال الري فحافظوا على الاعمال التي كان أنشأها الفرس من قبلهم ، ثم زادوا فيها فشقوا جداول جديدة وأقاموا على ضفافها المدن والقرى وبذلوا جهوداً جبارة في سبيل توسيع المشاريع القديمة وإحيائها .

٣ ـ مشروع السرشير ـ « نهر أبي الجند »

ومن أهم المشاريع العمرانية التي أعارها العرب عنايتهم «مشروع النهروان» هناك ما يؤيد أنهم بذلوا قصارى جهدهم لصيانة السدود الرئيسية التي كان أقامها أسلافهم على « مجرى العظيم » وعلى « نهر ديالى » وعلى « دجلة[1] » ، كما أن هناك ما يدل على أن المشكلة التي نشأت من جراء فتح « نهر القورج » ، وهو النهر الذي أنشأه كسرى ليحل محل « القاطول الاسفل » (مجرى القائم) والذي صار يهدد الاراضي الواطئة التي على النهروان الاسفل بالغرق في موسم الفيضان قد عولجت نهائياً على عهد الرشيد (١٧٠ـ١٩٣ هـ = ٧٨٦ـ٨٠٦ م) ، حيث كانت مدينة بغداد الشرقية من ضمن حدود تلك الاراضي المهددة بالغرق من نهر القورج . ويظهر أن الخبراء قد اشاروا على الرشيد أن حل مشكلة القورج لا يتم إلا بترك « نهر القورج » نفسه والرجوع الى مجرى القائم (القاطول الاسفل) الذي يقع صدره في مكان مرتفع وأرض حجرية تجعل رقبتي الصدر محصنتين بالصخور الطبيعية مما يسهل ضبط مياه الفيضان في فوهة النهر ، على عكس ما هي الحال في صدر « نهر القورج » الذي يقع في منطقة ترابية واطئة تجعل عملية ضبط مياه الفيضان فيه من أصعب الامور . وقد أخذ الرشيد بهذا الرأي فترك مجرى القورج نهائياً وسدّ صدره بعد أن أعاد حفر القاطول الاسفل (مجرى القائم) الذي سمّاه في هذه المرة « نهر ابي الجند » لكثرة ما كان يسقي من الارضين لأرزاق جنده ، وقد أعاد في الوقت نفسه فتح المجرى الاسفل الذي يأخذ من عند الصنم لاستعماله في موسم الفيضان ، كما كانت عليه الحال من قبل ، وكان نتيجة ذلك أن عاد مجرى القائم الذي سمي الآن بأسم ابي الجند الى عمرانه القديم فازدهرت فيه القرى والضياع من جديد بعد أن هجر الاهلون معظمها على أثر حفر مجرى القورج في زمن كسرى واتخاذه مجرىً رئيسياً

---

(١) راجع البحث الذي تقدم عن هذه السدود في الفصل الثاني، ص ١٥٩ و١٦٢ و١٦٧ .

للنهروان بدلاً من مجرى القائم . ومن جملة المدن التي ازدهرت على « مجرى ابي الجند » الجديد في هذا العهد المدينة المعروفة بأسم « طفّر » ، ومما ذكره ابن سرابيون عن « نهر ابي الجند » وعن مدينة « طفر » قوله : « ابو الجند يمر بين ضياع وقرى ويتفرع منه انهار تسقي الضياع التي على شاطىء دجلة الشرقي ويصب اكثرها الى دجلة ثم يمر الى طفّر[1] وعليه هنالك جسر ثم يمر في القاطول الكسروي فوق صولى بأربعة فراسخ » .

٣ ـ مجرى القورج وغرق مدينة بغداد الشرقية

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد هو أن « مجرى القورج » بقي مصدر خطر على بغداد من الغرق على الرغم من سد صدره على عهد الرشيد وإعادة إحياء مجرى القائم الاصلي مكانه ، فقد نقل لنا المؤرخون عدة حوادث تتعلق بغرق بغداد الشرقية بسبب انبثاق السد الذي في صدر القورج . قال ابن الاثير في حوادث سنة ٤٦٦هـ . (١٠٧٣م .) : « في هذه السنة غرق الجانب الشرقي وبعض الغربي في بغداد وسببه أن دجلة زادت زيادة عظيمة وانفتح القورج عند المسناة المعزّية[2] وجاء في الليل سيل عظيم وطفح الماء من البرية مع ريح

---

(١) لقد جاء ذكر مدينة طفر في معجم ياقوت وفي المراصد وقد كانت مهجورة في زمنهما فذكر ياقوت وابن عبدالحق أن طفر « قاع موحش بين بعقوبا ودقوقاء (مدينة دقوقاء هي طاووق الحالية الواقعة على طاووق جاي) من اعمال راذان ليس به ماء ولا مرعى ولا أثر طارق . » أما موقع مدينة طفر هذه وجسرها على مجرى أبي الجند فمن المحتمل أن الأطلال المعروفة اليوم باسم « تلول الخريبة » الواقعة داخل الزاوية التي يشكلها ملتقى مجرى القائم بمجرى الصنم هي أطلال مدينة طفر ، وهذه تحاذي ضفة مجرى الصنم اليسرى من جهة وضفة مجرى القائم اليمنى من الجهة الأخرى ، وتقع تواليا الخان القديم المعروف اليوم بأسم « خان صماوية » . وهذا هو الخان الذي سماه فيليكس جونس في سنة ١٨٤٠ « خان الزرقجي » . أما نهر الصنم ومجرى القائم فقد اندرست معالمهما في هذا القسم .

(٢) سميت هذه المسناة بالمعزية نسبة الى منشئها معز الدولة البويهي (٣٢٠ ـ ٣٥٦هـ .)

شديدة وجاء الماء الى المنازل من فوق ونبع من البلاليع والآبار بالجانب الشرقي وهلك خلق كثير تحت الهدم وشدّت الزواريق تحت التـــاج خوف الغرق وقام الخليفة يتضرّع ويصلّي وعليه البردة وبيـده القضيب . » وهنـاك حادثة ثانية ذكرها ابن الجوزي في كتاب « المنتظم في تاريخ الملوك والأمم » فقال ما نصه : « وفي ثامن عشر ربيع الاول من سنة ٥٥٤هـ . (١١٥٩م .) كثر المد بدجلة وخرق القورج وأقبل الى البلد فامتلأت الصحاري وخندق السور وأفسد الماء السور ففتح فيه فتحة يوم السبت تاسع عشر ربيع فوقع بعض السور عليهـا فسدّ بهـا ثم فتح الماء فتحة اخرى فأهملوها ظناً أنها تنفس عن السور لئلا يقع فغلب الماء وتعذر سده فغرق قراح ظفر والاجة والمختارة والمقتدية ودرب القيار وخرابة ابن جردة والريان وقراح القاضي وبعض القطيعة وبعض باب الأزج وبعض المامونية وقراح أبي الشحم وبعض قراح ابن رزين وبعض الظفرية ودرب الماء تحت الارض الى أماكن فوقعت . قال المصنف وخرجت من داري بدرب القيار يوم الاحد وقت الضحى فدخل اليها الماء وقت الظهر فلمـا كانت العصر وقعت الدور كلهـا وأخذ الناس يعبرون الى الجانب الغربي فبلغت المعبرة دنانير ولم يكن يقدر عليها ثم نقص الماء يوم الاثنين وسدت الثلمة وتهدم السور وبقي الماء الذي في داخل البلد يدب في المحال الى أن وصل بعض درب الشاكرية ودرب المطبخ وجئت بعد يومين الى درب القيار فما رأيت حائطاً قائماً ولم يعرف أحد موضع داره إلا بالتخمين وانما الكل تلال فاستدللنا على دربنا بمنـارة المسجد فانها لم تقع وغرقت مقبرة الامام احمد وغيرها من الاماكن والمقابر

وقد أقيمت حوالي القصور البويهية في الجهة الشمالية الشرقية للشماسية على محاذاة سهل الشماسيـــة الواطيء لمنع تأثير فيضان نهر القورج . وكانت تعرف هذه المسناة باسم « مسناة سهل الشماسية » ثم عرفت « المعزية » ، والظاهر أن آثار المسناة بقيت الى عهـــد ياقوت حيث ذكر في مادة « الشماسية » أن أثرها باق على حين أن باقي المحلة (الشماسية) كله صحراء موحشة يتخطف فيها اللصوص ثياب الناس

وانخسفت القبور المبنية وخرج الموتى على رأس المـــاء واسكر المشهد والحربية وكانت آية عجيبة ثم إن الماء عاد فزاد عشرين يوماً فنقض سد القورج فعمل فيه أياماً . » وقريب من هذا ما ذكره ابن العبري عن الفيضان المذكور فقال: « وفي سنة أربع وخمسين وخمسمائة ثامن ربيع الآخر كثرت الزيادة في دجلة وخرج القورج فوق بغداد فامتلأت الصحاري وخندق البـــلد ووقع بعض السور فغرق بعض القطيعة وباب الازج والمامونية ودب الماء تحت الارض الى أماكن فوقعت وأخذ الناس يعبرون الى الجانب الغربي فبلغت المعبرة عـدة دنانير ولم يكن يقدر عليهـا . ثم نقص الماء فكثر الخراب وبقيت المحال لا تعرف وإنما هي تلول فأخذ الناس حدود دورهم بالتخمين » .

ويعتقد لي سترانج أن « نهر القورج » كان يسير في اتجاه النهر المعروف سابقاً بـ « نهر الفضل » وهو النهر الوارد وصفه في ابن سرابيون(١) ، والأصح أن يقال أن « نهر الفضل » كان قبل فتح « نهر القورج » فرعاً من النهروان ينتهي الى مدينة بغداد الشرقية ، ثم صار فرعاً من « نهر القورج » بعد أن فتح نهر القورج من دجلة في جنوبي صدر نهر القائم ، وعاد فرجع فرعاً من النهروان كما كان بالاصل على أثر سد نهر القورج وإعادة فتح نهر القائم القديم على عهد الرشيد .

٤ ـ مجرى القورج وتحول مجرى دجلة

يظهر من مجرى التطورات التي اعتورت حوض دجلة ان مجرى القورج كان السبب المباشر في تحوّل نهر دجلة الرئيسي في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي من مجراه الغربي العالي الى العقيق الشرقي الواطىء ، لان مجرى القورج

---

(١) حول « نهر الفضل » راجع البحث الذي بلي عن « انهر مدينة بغداد الشرقية » في الفصل الثامن (مادة ٩) .

علاوة على وقوعه في أراضي منخفضة فانه كان يتفرع من مجرى دجلة الغربي القديم بمناسيب عالية ، ثم ان السد الذي انشيء في « العلث » لتحويل المياه الصيفية الى « نهر القورج » سبّب زيادة ارتفاع مناسيب مياه الفيضان أمام السد الامر الذي ادى بالنتيجة الى تحول مياه دجلة كلها الى جهة مجرى القورج واحتلالها ذلك المجرى .

ويلاحظ انه على الرغم من الهبوط الذي حصل في « مجرى نهر دجلة » بعد تحوله الى جهة الشرق فقد بقي « مجرى القورج » يهدد مدينة بغداد الشرقية بالغرق، ذلك لان مجرى دجلة لم يحتل من « مجرى القورج » غير القسم الواقع في الصدر، إذ نجده بعد ان يسير في « مجرى القورج » مسافة حوالي خمسين كيلومتراً ينحرف عن « نهر القورج » في المكان المسمى « هور الدغارة » ـ وهو الهور الذي صارت تتجمع فيه مياه دجلة ـ فيتركه في شرقيه وينحدر الى الجنوب نحو « السندية » و « السعدية » و « المنصورية » . وهكذا صارت المياه بعد تحول مجرى دجلة الى الشرق تتسرب الى القورج من « هور الدغارة » الواقع في شمالي الخالص ، وهو المكان الذي يترك فيه مجرى دجلة نهر القورج (راجع اللوحة رقم ٣) . ومن الحوادث المتعلقة بغرق مدينة بغداد الشرقية بسبب تسرب المياه الى مجرى القورج من قرب « هور الدغارة » المذكور حوادث سني ٦١٤ و ٦٤٦ و ٦٥٤ هـ

قال ابن الأثير في حوادث سنة ٦١٤ (١٢١٧ م) : « وفيها زادت دجلة زيادة عظيمة لم يشاهد في قديم الزمان مثلها واشرفت بغداد على الغرق فركب الوزير وكافة الامراء والاعيان وجمعوا الخلق العظيم من العامة وغيرهم لعمل القورج حول البلد وقلق الناس لذلك وانزعجوا وعاينوا الهلاك واعدوا السفن لينجوا فيها وظهر الخليفة للناس وحثهم على العمل وكان مما قال لهم لو كان يفدى ما أرى عال أو غيره لفعلت ولو دفع بحرب لفعلت ولكن أمر الله لا يرد ونبع

الماء من البلاليع والآبار من الجانب الشرقي وغرق كثير منه وغرق مشهد أبي حنيفة وبعض الرصافة وجامع المهدي وقرية الملكية والسكشك وانقطعت الصلاة بجامع السلطان » .

أما حادثة غرق سنة ٦٤٦ (١٢٤٨ م) فقد وصفها ابن الفوطي في كتابه « الحوادث الجامعة » بقوله : « وفي شوال من سنة ٦٤٦ هـ تواترت الغيوث فأدت الى غرق المدن والقرى وزادت الزابات بشكل مخيف إلا ان مع ذلك لم تبلغ الزيادة في دجلة تلك التي كانت سنة ٦١٤ » . وبعد ان وصف الاضرار والتخريبات التي احدثتها هذه الزيادة في بغداد الغربية انتقل الى البحث عن غرق جانب المدينة الشرقي فقال : «وغرق في الجانب الشرقي ما كان ظاهر السور من مساكن كانت استجدت منذ أيام الخليفة المستنصر بالله، وبولغ في عمارتها، وكان بها اسواق مادة ، وحمامات وبساتين مثمرة ، حتى كادت تشبه حاضر حلب أو سوق التركمان بالموصل ، كان ذلك مما يلي سوق العجم ، واجتمع بها خلق كثير من الزعماء والاجناد ، فهدم الماء معظم ذلك وتلف من الامتعة والغلات شيء كثير ، ونبع الماء من أساس حائط المدرسة المستنصرية ومن دار سنقرجا زعيم خوزستان المجاورة للمستنصرية ، ومن مسجد الخطائر المعروف بأم الناصر المجاور لهذه الدار ، وامتلأت الطريق وامتنع الناس من الجواز الى هناك من باب سوق المدرسة الى باب مشرعة الاربيين ، وكان من حيث تزايد الماء في دجلة تقدم بأحكام القورج ، وخرج الوزير مؤيد الدين بن العلقمي الى هناك ونزل عن فرسه وحمل باقة حطب فوافقه كافة الناس ، واشتد العمل ، فاتفق ان دجلة نقصت ثم زادت في ذي الحجة ، زيادة مفرطة أعظم من الاولى ، فانفتحت في القورج فتحة ، وصاحب الديوان فخر الدين بن الدامغاني هناك فنجا بنفسه مسرعاً ودخل البلد، وانفتحت اخرى الى جانب دار المسناة واحاط الماء ببغداد ، وكان الهواء شديداً فهدم من السور الآخر عدة ابراج وخرج من مرامي القشاب، فاحكمت هذه المواضع ، وهدم السور الطيني وأخذ ترابه ، لأجل ذلك،

فأخذ الماء في النقيصة بعد ذلك بأيام بعد ان خرج من باب الغربه ، فرمى ما بين يديه من الحيطان والخانات ، وغشي رباط شيخ الشيوخ وما يجاوره ، ودخل درب السلسلة فلم يبق به داراً إلا هدمها ، ولم يتمكن أحد من أهل هذه المواضع من نقل شيء مما لهم بها ، بل نجوا بأنفسهم ووقعت الدور على ما فيها ، ووصل الى البدرية ودار الخليفة والريحانيين ودار الوزير وباب العامة ، وتعذّر سلوك هذه الاماكن وانهدمت الدور الشطانيات بأسرها وسوق المدرسة ودرب المسعود ، وأقام الماء في المدرسة النظامية ستة أذرع وغرقت محلة الرصافة ، ووقع اكثر دورها وسورها وغشي قبور الخلفاء رضوان الله عليهم ، وهدم مشهد عبيد الله ورباط الاصحاب المجاور له[1] . »

وقد وصف ابن الفوطي حادثة غرق سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) ايضاً فقال : في هذه السنة ، زادت دجلة زيادة عظيمة ، وانفتح في القورج فتحة كبيرة عجز من يتولاه عن استدراكها ، فركب الوزير وكافة الولاة معه ، وأخذ الوزير في يده باقة شوك ، ففعل سائر العالم مثل ذلك ، ولم يقع التمكن من سدها فتركت ، وانهزم الناس كلهم والماء في أثرهم فأحاط ببغداد ، وغرق الجانبين منها ، وهدم دوراً كثيرة بالحريم والمشهد وتلك المحال ، وامتلأت اسواق الجانب الشرقي ، وخرج الماء من حيطان الدور والمنافذ والآبار والبلاليع وامتلأت دار الخليفة كلها ما عدا (الدار الشاطئية) فانتقل من بها الى الغرف والسطوح ، وتعذر الوصول الى دار الخليفة إلا في سفينة أو سباحة ، ونقل من كان من انساب الخليفة محبوساً في دار الشجرة ودار الصخر الى ديوان الزمام ، وانتقل الوزير من داره الى دار علاء الدين الطبرسي الدويدار ، ثم دخل الماء الى ديوان الزمام وليس له درج ، فصار من بها واقفاً وبلغ الماء الى صدره ، وكل من له ولد صغير حمله على كتفه ، وهم يستغيثون ويضجون ، فحولوا الى الحلبة وقد ذهب كل

---

(١) « الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة » لابن الفوطي ص ٢٢٩ ـ ٢٣٤

ما كان عندهم، وضربت لهم الخيم بها وكانت السفن والاكلاك تسير في الريحانيين حتى تصل الى باب العامة ؛ وتحوّل كل من كان ساكناً في محال دار الخليفة ، وتلف من الناس شيء كثير ، وكان علو الماء في المدرسة النظامية زيادة على اربعة اذرع ... وخلت محال دار الخليفة ومعظم محال بغداد من ساكن ، ووقعت دور كثيرة في سائر المحال ، وخلت الديار وتعفت الديار وصار في النظر اليها اعتبار ، ووقع رباط الزوزني والحائط الشطائي من جامع فخر الدولة بن المطلب ، وتداعى اكثره ، وصلى الناس عدة جمع في المدرسة المستنصرية ، وكان الناس يحضرون بالسفن فأمتلأت المدرسة وغلق بابها واتصلت الصفوف في السفن من باب المستنصرية الى سوق المدرسة والى آخره ، وصلى أهل باب الازج في مصلى العبيد بعقد الحلبة ، وسقطت نصف مسناة مسجد قرية ، فعمل له سكر من خشب وطرفاء ،فما زاد على ذلك الى ان عمّره الصاحب علاء الدين عطا ملك الجويني سنة سبع وستين وستمائة ، وزاد الفرات أيضاً فغرقت عانة والحديثة ، وهيت ، والحلة وغيرها،وانفتح قبين فغرق دجيل ونهر عيسى ونهر الملك ، واتلف زروعاً كثيرة[1]» .

٥ ـ مشروع اعادة حفر نهر القائم (نهر الى الجند)

نعود الآن الى قاطول الرشيد (نهر ابي الجند) ، وهو مجرى القائم الأصلي الذي قرر الرشيد إعادة استعماله كمجرى صيفي للنهروان بدلاً من القورج ، فنقول : إن المجرى المذكور كان مليئاً بالأتربة والاطيان عند ما باشر الرشيد لإعادة حفره، بالنظر لتراكم كميات هائلة من ترسبات الطمي في قعره ، ولا سيما وقد أهمل خلال الفترة الطويلة التي حل فيها مجرى القورج محله ، لأن المياه التي كانت تدخل اليه خلال هذه الفترة كانت مقتصرة على مياه الفيضان العالية المشحونة بالطمي والدهلة الأمر الذي أدى الى إندراسه من جراء تراكم الترسبات الكثيرة

(١) الحوادث الجامعة لأبن الفوطي ص ٣١٧ - ٣١٩

فيه . ولم تكن عملية تطهير النهر من هذه الاطيان من الامور الهيّنة إذا لاحظنا أن ارتفاع الضفاف هنالك يربو على عشرة امتار في معظم اقسامه ، إلا أن الرشيد تغلّب على هذه الصعوبات بعزمه ومواظبته على انجاز هذا المشروع الذي يحقق له صيانة عاصمته (بغداد) من الغرق . ويلاحظ أن الاتربة التي رفعت من قعر « نهر القائم » وضعت كلها على حافة النهر الغربية ، ويكفي أن نشاهد التلول العالية التي تكوّنت من هذه الأتربة وهي تمتد على طول الضفة اليمنى لمجرى القائم لتصور مقدار كميات الأتربة الهائلة التي رفعت من قعر النهر في هذا الدور .

٦ ـ قصرا الرشيد والمعتصم على القاطول

وصف لنا المؤرخون العرب مشروع الرشيد ، وهو يشتمل على إعادة حفر مجرى القائم وانشاء قصر عليه ، ثم ذكروا أيضاً أن المعتصم لما اعتزم نقل عاصمته الى خارج بغداد اتجهت نيته في اول الأمر الى انشاء عاصمته الجديدة في منطقة « قاطول الرشيد » ، فبنى بناء فيه ثم عاد فعدل عنه منتقلاً الى الموضع الذي تقع فيه سامراء فأسس عاصمته فيه . فقد ذكر ياقوت في مادة « القاطول » من معجمه أن القاطول « نهر كأنه مقطوع من دجلة وهو نهر كان في موضع سامرا قبل أن تعمّر وكان الرشيد اول من حفر هذا النهر وبنى على فوهته قصراً سماه ابا الجند لكثرة ما كان يسقي من الارضين وجعله لأرزاق جنده ، وقيل بسامراء (ان المعتصم) [1] بنى عليه بناء دفعه الى اشناس التركي مولاه ثم انتقل الى سامراء ونقل اليها الناس كما ذكرنا في سامراء ... وفوق هذا القاطول القاطول الكسروي حفره كسرى انوشروان العادل يأخذ من جانب دجلة في الجانب الشرقي أيضاً وعليه شاذروان فوقه [2] يسقي رستاقاً بين النهرين

---

(١) جاء النص خالياً من كلمة (معتصم) ولعل ذلك من خطأ الناسخ .

(٢) ان الشاذروان الذي يقصده هو الناظم القاطعي الواقع عند الكيلومتر (٣٠) من مجرى القاطول الكسروي والذي نميل الى الاعتقاد أنه انشيء على عهد المتوكل

(ويقصد بذلك القاطولين القاطول الأعلى الكسروي وقاطول الرشيد الأسفل ابا الجند) من طسوج بزرجسابور[١] وحفر بعده الرشيد هـذا القاطول الذي قدمنـا ذكره تحته مما يلي سامراء[٢] وهو ايضاً يصب في النهروان تحت الشاذروان ... »

ويستدل من وصف ياقوت هذا أن الرشيد اول من حفر القاطول (نهر ابي الجند) ، غير أن ابن عبدالحق صحّح كلام ياقوت في كتابه « المراصد » فقال : « إن القاطول نهر كان في موضع سامراء قبل ان يعمّر حفره الرشيد الخ ... » وأثبت دليل على صحة ما صححه ابن عبدالحق في هذا الصدد ما نشاهده اليوم من آثار الحفر الجديد الذي قام به الرشيد ، فتدلنا هذه الآثار على أن الأتربة الناتجة من هذا الحفر وضعت كلها على الجانب الايمن من النهر وعلى بعد بضعة امتار من الحافة الأصلية وهي تشكل الآن سلسلة تلال عالية تمتد بموازاة الضفة الاصلية على طول النهر .

وقد كرّر ياقوت في مادة سامراء ما ذكره في مادة القاطول عن حفر الرشيد لهذا النهر قال : « وكان الرشيد حفر نهراً عند سامراء سماه القاطول واتى الجند

=لايصال المياه الى الاراضي الكائنة بين القاطولين (القاطول الأعلى والقاطول الأسفل)، وهي الأراضي التي كان يقع فيها حير المتوكل للحيوانات وسيأتي البحث عنه فيما بعد (راجع البحث التـالي الخاص بحير المتوكل للوحوش وبركة البحتري في الفصلين السادس والسابع كذلك ما تقدم في ص ١٤١ و ١٥٤) .

(١) راجع البحث الذي تقدم عن هذه المنطقة في صفحة ١٨٢ والبحث الذي يلي في الفصل التاسع (مادة ٢)

(٢) جاءت في النص « بغداد » وهذا ما جعل ابن عبدالحق يبدي استغرابه لقول ياقوت (أي قوله « مما يلي بغداد ») بعد أن ذكر في مقدمة كلامه أن النهر الذي حفره الرشيد يقع في موضع سامراء ، ويضيف ابن عبدالحق الى ذلك شارحاً بأن النهر الذي في جوار بغداد يأخذ من النهروان تحت نهر الخالص ويصل ماؤه الى باب بغداد وهو نهر كلواذي (راجع مادة القاطول في المراصد

وبنى عنده قصراً ثم بنى المعتصم أيضاً هناك قصراً ووهبه لمولاه اشناس فلما ضاقت بغداد عن عساكره وأراد استحداث مدينة كان هذا الموضع على خاطره فجاءه وبنى عنده سر من رأى » . وتطرق البلاذري الى قصر الرشيد على القاطول والبناء الذي أقامه المعتصم هناك قبل أن يستقر رأيه على موقع سامراء قال : ـ « ونزل مدينة السلام أمير المؤمنين المعتصم بالله ثم شخص عنها الى القاطول فنزل قصر الرشيد كان ابتناه حين حفر قاطوله الذي دعاه ابا الجند لقيام ما يسقي من الارضين بأرزاق جنده ، ثم بنى بالقاطول بناء نزله ودفع ذلك القصر الى اشناس التركي مولاه وهمّ بتمصير ما هناك وابتدأ بناء مدينة تركها ثم رأى تمصير سر من رأى فمصرها ونقل الناس اليها وأقام بها . » ويحسن بنا أن ندون هنا ما كتبه المؤرخون الآخرون في هذا الموضوع ، فقد جاء في البلدان لليعقوبي « إن المعتصم عزم ان يترك بغداد فبنى بالشماسية خارج بغداد فضاقت عليه ارض ذلك الموضع وكره ايضاً قربها من بغداد[1] فمضى الى

---

(١) الشماسية محلة من محلات مدينة بغداد الشرقية تقع في أقصى الشمال من الجهة الشرقية من محلة الرصافة ، وكانت تفصلها عن محلة الرصافة الطريق الشمالية الكبيرة التي تنحرف عند رأس الجسر الكبير متجهة نحو الموصل . وكانت هذه الطريق تخرج من بغداد الشرقية من الباب التي كانت تدعى باب الشماسية والواقعة في الطرف الشمالي الغربي لسور المدينة الذي يحيط بمحلة الشماسية ، وكانت تعرف هذه الطريق في القسم الأسفل بطريق الجسر ويسمى القسم الأعلى قرب باب الشماسية درب نهر المهدي ، نسبة الى النهر الذي كان يجري بمحاذاته ، (حول نهر المهدي راجع البحث عن أنهر مدينة بغداد الشرقية في الفصل الثامن من الكتاب) . ويخترق الطريق التي بين القسم الأعلى والقسم الأسفل الموضع المسمى « الدور » ويصفه ياقوت بأنه لا يبعد كثيراً عن مشهد أبي حنيفة . وفي عهد هرون الرشيد بنى جعفر البرمكي قبيل أن يمنى بالعاقبة المفجعة قصراً في الدور ولكن لم تمكنه الظروف قضاء حياته فيه . وقد اتخذت الشماسية مركزاً للقصور البويهية على عهد البويهيين (راجع كتاب لي سترانج « بغداد في عهد الخلافة العباسية » .) وقد كتب ياقوت في صفة الشماسية قال : ـ « هي مجاورة لدار الروم التي في أعلا مدينة بغداد واليها ينسب باب الشماسية وفيها كانت دار معز الدولة أبي الحسين أحمد بن بويه وفرغ منها في

البردان[١] في سنة ٢٢١ وأقام بالبردان اياماً واحضر المهندسين ثم لم يرض الموضع فصار الى موضع يقال له باحمشا[٢] من الجانب الشرقي من دجلة فقدر هناك مدينة على دجلة وطلب موضعاً يحفر فيه نهراً فلم يجده فنفذ الى القرية المعروفة بالحظيرة[٣] فأقام بها مدة ثم مد الى القاطول فقال هذا اصلح المواضع فصير النهر المعروف بالقاطول وسط المدينة ويكون البناء على دجلة وعلى القاطول فابتدأ البناء واقطع القواد والكتاب والناس فبنوا حتى ارتفع البناء واختطت الاسواق على القاطول وعلى دجلة وسكن هو في بعض ما بني له وسكن بعض الناس ايضاً ثم قال ارض القاطول غير طائلة وإنما هي حصاً وافهار والبناء بها صعب جداً وليس لأرضها سعة ثم ركب متصيداً فمر في مسيره حتى صار الى موضع سر من رأى . » وقد جاء في الكامل لابن الأثير ايضاً : « إن مسرور الكبير قال سألني المعتصم اين كان الرشيد يتنزه إذا ضجر ببغداد قلت بالقاطول وكان قد بنى هناك مدينة آثارها وسورها قائم وكان قد خاف من الجند ما خاف المعتصم ، فلما وثب أهل الشام وعصوا خرج الى الرقة فأقام بها وبقيت مدينة القاطول لم تستتم . » ويظهر مما دونه ياقوت في مادة سامراء ان الرشيد لما اعاد

= سنة ٣٠٥ وبلغت النفقة عليها ثلاثة عشر الف الف درهم ومسناته باق أثرها وباقي المحلة كله صحراء موحشة يتخطف فيها اللصوص ثياب الناس وهي أعلا من الرصافة محلة أبي حنيفة . »

(١) حول قرية « البردان » راجع ما تقدم في صفحة ١٨٨ .

(٢) حول قرية « باحمشا » راجع ما تقدم في صفحة ١٨٦ .

(٣) جاءت في النص « المطيرة » ولا شك أن ذلك من خطأ الناسخ لأننا نعلم أن المطيرة تقع بين القادسية وسامراء وقد أجمع كل المؤرخين العرب على ذلك ، ثم أن القرية التي تلي « باحمشا » من الشمال هي « الحظيرة » وهذه تقع على الضفة الشرقية من مجرى دجلة القديم أيضاً ، وان موضعها الأصلي لا يزال يعرف باسم « الحظيرة » ويقع جنوبي بساتين بلد الحسانية عند التل المعروف باسم « تل ابي كزيز » (راجع البحث الذي تقدم عن المطيرة في ص ٥٩ — ٦١ والبحث عن الحظيرة في صفحة ١٨٥

حفر« نهر القائم » (نهر ابي الجند) كان ينوي بناء سامراء إلا انه اكتفى ببناء قصر هناك فقط ، فقال نقلاً عن ابراهيم الجنيدي « ان الرشيد اراد بناء سامراء فبنى بحذائها قصراً وهو بازاء اثر عظيم كان للاكاسرة ثم بناها المعتصم ونزلها في سنة ٢٢١ هـ . »

ولندون أخيراً ما كتبه المسعودي في كتابه « مروج الذهب » حول هذا الموضوع وهذا نص كلامه : « فعزم المعتصم على النقلة من الاتراك وان ينزل في فضاء من الارض فنزل (البردان) (١) على اربعة فراسخ من بغداد فلم يستطب هواءها ولا اتسع له هواؤها فلم يزل ينتقل ويتقرى المواضع والاماكن الى دجلة وغيرها حتى انتهى بالقاطول ، فاستطاب الموضع ، وكان هناك قرية يسكنها خلق من الجرامقة وناس من النبط على النهر المعروف بالقاطول آخذاً من دجلة فبنى هناك قصراً وبنى الناس وانتقلوا عن مدينة السلام وخلت من السكان إلا اليسير وكان فيما قاله بعض العيارين في ذلك معيراً المعتصم بانتقاله عنهم :

« أيا ساكن القاطول بين الجرامقة (٢) تركت ببغداد الكباش البطارقة. »

وقد أضاف المسعودي الى ذلك قائلاً : « ونالت من المعتصم شدة عظيمة لبرد الموضع وصلابة ارضه وتأذوا ليالي ففي ذلك يقول بعض من كان في الجيش :

« قالوا لنا إن بالقاطول مشتاتا فنحن نأمل صنع الله مولانا

« الناس يأتمرون الرأي بينهم والله في كل يوم محدث شأنا

« ولما تأذى المعتصم بالموضع وتعذر البناء فيه خرج يتقرى المواضع فانتهى الى موضع سامراء » .

---

(١) جاءت في النص (الراذان) ولا شك أن ذلك من خطأ الناسخ لأن الوصف ينطبق على (البردان) .

(٢) توجد حتى الآن جماعة من الاعراب في منطقة سامراء تسمى الجرامقة وهؤلاء يقطنون في الوقت الحاضر في قلعة سامراء على الجانب الغربي من مجرى دجلة الحالي وقد اندمجوا بعشيرة ابو عباس ، وقول ابن العبري في الجرامقة انهم قوم بالموصل أصلهم من الفرس .

نستخلص مما تقدم انه لما قام الرشيد بحفر القاطول ، الذي سماه « أبا الجند » ، انشأ قصراً عليه كما انه شرع في انشاء مدينة هناك لأسكان جنوده فيها إلا انه لم يتم انشاؤها، وكذلك نستخلص ان المعتصم قبل ان ينتقل الى سامراء نزل قصر الرشيد الذي على القاطول ، وفي الوقت نفسه بنى هناك قصراً ووهب ذلك القصر الى مولاه أشناس ، كما انه بنى عند القرية التي كان يسكنها خلق من الجرامقة والنبط مدينة على دجلة وعلى ضفتي القاطول (قاطول الرشيد أو مجرى القائم)واقطع القواد والكتّاب والناس هناك ثم اختط الاسواق على القاطول وعلى دجلة وسكن والناس في بعض ما بنى ، غير انه وجد ان الارض متكونة من حصى وانهار فضلاً عن انها غير قابلة لتوسع المدينة فيها فعدل عنها واختار موضع سامراء محلها . فأين يجب ان يكون قصر الرشيد واين موضع المدينة التي شرع الرشيد في انشائها لأسكان جنده فيها ولكن لم يتم بناؤها ؟ ... ثم اين قد يكون القصر الذي أقامه المعتصم هناك وهو القصر الذي وهبه الى اشناس ؟ واين المدينة التي شرع المعتصم في انشائها على جانبي القاطول وعلى ضفة نهر دجلة فاختط فيها الاسواق وقطائع القواد والكتّاب وغيرهم ولكنه عدل عنها حتى صار الى موضع سرّ من رأى ؟... هذه هي من جملة المنشئات في منطقة سامراء التي لم تعيّن اماكنها بعد والتي لم يشبعها المحققون بحثاً بل لم يتطرق اليها الباحثون إلا عرضاً .

٧ ـ موقع قصر الرشيد ـ « اطلال المشرحات »

اما القصر الذي انشأه الرشيد على قاطوله والمدينة التي شرع في انشائها هناك ولم تتم فاننا نميل الى الاعتقاد بأنهما يقعان في المكان المعروف بأسم « المشرحات » ، وهذا يقع في شمال شرقي سور القادسية[1] على الضفة اليسرى

(١) حول سور القادسية المذكور راجع ما تقدم في ص ١٤٩ ـ ١٥١ والبحث التالي الخاص بسور القادسية في هذا الفصل .

لمجرى القائم (نهر ابي الجند) وعلى بعد ستة كيلومترات تقريباً من صدر المجرى المذكور. ويمكن الوصول الى موقع «المشرحات» هذا من سامراء بأتباع طريق الضلوعية الذي يسير في الاتجاه الجنوبي الشرقي ثم بعد الوصول الى «بئر العجم» الواقعة على مسافة ثلاثة عشر كيلومتراً من سامراء الانحراف عن الطريق العام والنزول الى الجنوب حيث تقع «خرائب المشرحات» على بعد اربعة كيلومترات من « بئر العجم » . وترتفع « تلول المشرحات» هذه الى اكثر من اربعة امتار عن سطح الارض ويمكن مشاهدتها من « بئر العجم » والاتجاه نحوها بدون أية صعوبة .

اما دليلنا على ان القصر الذي انشأه الرشيد على القاطول والمدينة التي شرع في انشائها هناك يقعان في موضع « المشرحات » المتقدم ذكره هو انه لا يوجد موضع آخر في هذه المنطقة ينطبق عليه الوصف الذي دوّنه المؤرخون عن القصر والمدينة ، فقد عيّن المؤرخون موضع القصر والمدينة على القاطول أو نهر ابي الجند المسمى حالياً نهر القائم بالقرب من صدره ، ولا توجد اطلال على مجرى القائم في الموضع المشار اليه يصح ان تمثل بقايا قصر مهم كالقصر المذكور غير « اطلال المشرحات » . ويلاحظ ان المؤرخين لما وصفوا موضع قصر الرشيد لم يتطرقوا الى ذكر نهر دجلة على حين انهم ذكروا ان القصر الذي بناه المعتصم والمدينة التي انشأها على القاطول كانا يطلان على دجلة ، الامر الذي يدل على أن قصر الرشيد ومدينته كانا بعيدين عن دجلة ، وهذا ما ينطبق تماماً على موقع «المشرحات» المار الذكر . ويلاحظ أيضاً ان الرشيد لما أعاد حفر نهر أبي الجند (نهر القائم) أمر بوضع كل الاتربة المستخرجة من قعر النهر على الضفة اليمنى ، مما يدل على انه كان يرغب في أن يجعل مدينته وقصره يشرفان على النهر المذكور ، لان وضع الاتربة على الضفة التي انشأ فيها قصره ومدينته يكوّن تلولاً عالية تسد منظر النهر عن المدينة والقصر . وفضلاً عن ذلك فان موضع «المشرحات» هو المكان الوحيد في منطقة القاطول الذي تجتمع فيه الوسائل اللازمة لجعله

لائقاً لأن يكون منتزهاً للخليفة ، فهو يقع بين النهرين « القاطول الاعلى الكسروي » و « قاطول الرشيد الاسفل » وفي أرض سهلة ذات تربة صالحة لانشاء البساتين والزراعة ، كما انه يمكن ايصال المياه اليه من « القاطول الأعلى الكسروي » بالطريقة السيحية بكل سهولة . وهناك ما يدل على ان الرشيد لما انشأ قصره في هذا الموضع (اي موضع المشرحات) اعاد فتح النهر القديم ،الذي يتفرع من الضفة اليمنى لنهر القاطول الاعلى الكسروي وينتهي الى « حصن القادسية »(١) ، وهو النهر الذي كان قد هجر بعد ان انشأ كسرى انو شروان نهر القورج بدلاً من مجرى القائم (مجرى النهروان الاصلي) وذلك باستخدام القسم الاعلى من هذا النهر لايصال المياه الى قصر المشرحات وحدائقه(٢).

ومما يدل على ان قصر الرشيد المذكور كان عامراً في زمن المعتصم ، ان المعتصم نزل فيه عندما جاء الى هذه المنطقة وشرع في بناء مدينته فيها . والذي نراه ان قصر الرشيد هذا بقي على حاله في عهد المعتصم حتى جاء المتوكل فبنى قصراً جديداً مكانه وانشأ امام القصر الجديد البركة الجعفرية المشهورة التي وصفها البحتري، كما انه انشأ حير الحيوانات هناك أيضاً، ولايصال المياه بصورة دائمة الى القصر والحير اعاد تنظيم النهر الذي كان قد أوصله الرشيد الى قصره في هذا الموضع بانشاء ناظم قاطع على مجرى القاطول الاعلى الكسروي وقد سمي النهر في هذا الدور « نهر نيزك » ، وسنأتي على ذكر هذه المنشئات فيما بعد(٣) .

٨ ـ موقع قصر المعتصم « منطقة القادسية »

اما القصر الذي بناه المعتصم والمدينة التي انشأها على دجلة وعلى القاطول

(١) راجع البحث الذي تقدم حول نهر القادسية في صفحة ١٥٢
(٢) راجع البحث الذي تقدم حول نهر القورج في صفحة ٢١٢
(٣) راجع البحث التالي الخاص بحير المتوكل والبركة الجعفرية في الفصلين السادس والسابع .

فيقعان في المنطقة المعروفة بالقادسية ، وهذه تشتمل على المنطقة التي تبدأ عند « قصر بركوارا » من الغرب ، فتمتد على ضفة نهر دجلة الى الجنوب الشرقي حتى صدر مجرى القائم ، ثم تسير ضمن الاراضي الواقعة على الضفة اليمنى لمجرى القائم (أي الاراضي الواقعة بين مجرى القائم ودجلة) حتى تنتهي الى نقطة تقع على بعد حوالي ثمانية كيلومترات من جنوبي صدر القائم ، وبذا يبلغ طول القادسية حوالي اثني عشر كيلومتراً ، اما عرضها فيتراوح من الكيلومتر الواحد الى الثلاثة كيلومترات .

٩ ـ متنزهات القادسية والقاطول

والظاهر ان منطقة القادسية هذه بما فيها القاطول الاسفل (مجرى القائم) كانت منذ عهد الفرس من أجمل المتنزهات في القطر العراقي ، فكانت في سابق العهد متنزها للمناذرة ومجلساً للانس يتردد اليه كبار رجال الدولة المجاورة ، وفي زمن العرب كانت مجمع انسهم وطربهم ، وقد وصف الشعراء والكتاب حدائق هذه المنطقة واديرتها بكثير من الاطراء ، وهـذا عُمَرُ نصر الذي يقول فيه الشاعر الحسين بن الضحّاك : ـ

يا عُمَرَ نصر لقد هيجت ساكنة ... هاجت بلابل صبٍّ بعد اقصار
لله هاتفة هبّت مرجّعة ... زبور داود طوراً بعد أطوار
خمّار حانتها ان زرت حانته ... أذكى مجامرها بالعود والغار
تلهيك ريقته عن طيب خمرته ... سقياً لذاك جنى من ريق خمار
أغرى القلوب به الحاظ ساجية ... مرهاء تطرف عن اجفان سحّار

وهاك « دير السوسي » وفيه يقول ابن المعتز :

يا ليالي بالمطيرة والكرخ ... ودير السوسي ، بالله عودي
كنت عندي انموذجات من الجنة ولكنها بغير خلود

وقد أشار أبو الحسن علي بن محمد المشهور بـ « الشابشتي » في كتابه « الديارات » الى هذا الدير أيضاً فقال انه « لطيف ، على شاطىء دجلة ،

بقادسية سرّ من رأى . وبين القادسية وسر من رأى أربعة فراسخ ، والمطيرة بينهما . وهذه النواحي كلها منتزهات وكروم وبساتين . والناس يقصدون هذا الدير ويشربون في بساتينه . وهو من مواطن السرور ومواضع القصف واللعب » .

اما موضع هذا الدير فاننا نميل الى الاعتقاد بأنه يقع في التل المعروف بأسم « تل الصوّان » ، وهو التل الواقع على شاطىء دجلة جنوبي « قصر بركوارا » بينه وبين « منارة القائم » . ويشمل تل الصوان هذا على خرائب واسعة تبلغ مساحتها حوالي ستة آلاف متر مربع وقد استخرج الاهلون معظم آجر البناء ان لم يكن كله. ومما عثرنا عليه بين خرائب هذا التل فخار يعود الى زمن ماقبل التاريخ يدل وجوده هناك على ان الدير (ان صح مكانه هذا) انشيء على انقاض بناء قديم يرجع الى عهود سحيقة في التاريخ(١) .

وقد كتب الشابشتي أيضاً في صفة القادسية قولة : « والقادسية من أحسن المواضيع وانزهها ، وهي من معادن الشراب ومناخات المتطربين ، جامعة لما يطلب أهل البطالة والخسارة وبالقادسية بنى المتوكل قصره المعروف ببركوارا ولما فرغ من بنائه وهبه لابنه المعتز » .

وكانت منطقة القاطول والقادسية من أحب المتنزهات وساحات الصيد لدى خلفاء بني العباس فكانوا يقصدونها لقضاء أوقات طربهم وانسهم فيها كما كانوا يقصدونها للقنص والصيد حيث كانت اطيار البر والماء موفورة في المنطقة نفسها وقد جاء في الأغاني ما يشير الى ان المعتصم كان يقضي بعض أوقاته في منطقة القاطول، وهذا نص ما ذكره صاحب الكتاب في هذا الصدد قال : « أخبرني عمي قال حدثنا أبو عبد الله المرزبان قال حدثني ابراهيم بن أبي دلف العجلي قال كنا مع المعتصم بالقاطول وكان ابراهيم بن المهدي في حراقته بالجانب الغربي وأبي

(١) راجع البحث الذي تقدم في صفحة ٥٣ ـ ٥٤

واسحاق الموصلي في حرقتيهما في الجانب الشرقي فدعاهما يوم جمعة فعبرا اليه في زلال وأنا معهما وأنا صغير وعلى أقبية ومنطقة فلما دنونا من حراقة ابراهيم نهض ونهضنا ونهضت بنهوضه صبية له يقال لها غضة واذا في يديه كأسان وفي يديها كأس فلما صعدنا اليه اندفع فغنى :

« حياكما الله خليليـــا ان ميتاً كنت وان حيا
« ان قلتما خيراً فأهل له أو قلتما غيـاً فـلا غيـا

« ثم ناول لكل واحد منهم كأساً وأخذ هو الكاس الذي كانت في يد الجارية وقال اشربا على ريقكما ثم دعا بالطعام فأكلوا وشربوا ثم أخذوا العيدان فغناها ساعة وغنياه وضرب وضربا معه وغنت الجارية بعدهم فقال لها أبي أحسنت مراراً فقال له ان كانت أحسنت فخذها اليك فما اخرجتها إلا اليك[1] » .

واليك ما ذكره ابراهيم بن الحسن بن سهل عن الواثق، وهو يتصيد على القاطول، قال : « كنا مع الواثق بالقاطول وهو يتصيد فصاد صيداً حسناً وهو في الزو[2] من الاوز والدرّاج وطير الماء وغير ذلك . ثم رجع فتـــغدى ، ودعا بالجلساء والمغنيين وطرب وقال من ينشدنا ؟ فقام الحسين بن الضحاك فأنشده :

« سقى الله بالقاطول مسرح طرفـكا وخص بسقياه منـــا كب قصركا

حتى انتهى الى قوله :

« تحـين الدراج في جنـــباته وللغرّ آجال قدرن بكفـكا »[3]

---

(١) الاغاني الجزء الثامن ص ٥٤ و ٨٣ .

(٢) الزو نوع من السفن كان منتشراً في العصر العبـــاسي . وقد جاء ذكره في مناسبات عدة ، فجاء ذكره في الطبري لمناسبة وصفه استعراض المعتصم للزط بعد ان جيء بهم الى بغداد بطريق النهر ، فقال ان المعتصم كان بالشماسية في سفينة يقـال لها الزو فمر به الزط وهم في زواريقهم ، وقد ورد ذكر الزو ايضاً في مصادر كثيرة اخرى .

(٣) الأغاني الجزء السابع صفحة ١٥٨ .

والظاهر أن القصر المشار اليه في البيت الاول هو قصر الرشيد، الذي على القاطول ، وهو نفس قصر المشرحات الذي بناه الرشيد ، وقد كان موجوداً على حالته الاصلية في عهدي المعتصم والواثق حتى إذا جاء المتوكل أعاد بناءه من جديد وأضاف اليه بركة البحتري المشهورة .

ولما ولي الواثق الخلافة جلس للناس ودخل اليه المهنئون والشعراء ومن جملة ما نظمه احدهم في وصف السفينة التي كان يركبها الخليفة في دجلة والقاطول الابيات التالية : —

الى خازن الله في خلقه ... سراج النهار وبدر الظلم
رحلنا غرابيب زفافة ... بدجلة في موجها الملتطم
إذا ما قصدنا لقاطولها ... ودهم قراقيرها تصطدم
سكنا الى خير مسكونة ... يتعمها راغب من أمم (١)

وقد وصف البحتري إحدى نزهات المتوكل بالزو على القاطول قال : —

أبى يومنا بالزو إلا تحسناً ... لنا بسماع طيّب ومدام
غنينا على قصر يسير بفتية ... قعود على أرجائه وقيام
تظل البزاة البيض تخطف حولنا ... جآجيء طير في السماء سوام
تحذر بالدراج من كل شاهق ... مخضبةً أظفارهن دوام
فلم أر كالقاطول يحمل ماؤه ... تدفق بحر بالسماحة طام
ولا جبلا كالزو يوقف تارة ... وينقاد أما قدته بزمام

ثم وصف البحتري الزو في قصيدة اخرى قال : —

تعجبت من فرعون إذ ظن أنه ... إله لأن النيل من تحته يجري
ولو شاهد الدنيا وجامع ملكها ... لقل لديه ما يكبن من مصر

(١) غرابيب : السفينة ، والزفافة : السريعة ، والقراقير : السفن الطويلة ، ومن أمم : من قريب .

ولو بصرت عيناه بازو لازدرى حقير الذي نالت يداه من الأمر
إذاً رأى قصراً على ظهر لجة يروح ويغدو فوق أمواجها تجري
تصاد الوحوش في حفاف طريقه وتستنزل الطير العوالي على قسر

وقد بلغت منطقة القاطول والقادسية ذروتها في الجمال والتنسيق على عهد المتوكل ، فقد أشغل المتوكل الساحة الواسعة الواقعة بين القاطول الأعلى الكسروي وقاطول الرشيد الاسفل (نهر القائم) ، وأنشأ فيها حديقة فسيحة للحيوانات ، ثم أقام على الطرف الجنوبي من هذه الحديقة قصراً واسعاً ، في مكان قصر الرشيد القديم في المشرحات ، وساحة كبيرة خلف القصر تتصل بضفة القاطول الاسفل اليسرى ، وقد أنشأ أمام هذا القصر من جهة الشمال البركة الجعفرية المشهورة التي وصفها البحتري ، وفوق كل هذا استغل مياه القاطول الأعلى فأنشأ ناظماً قاطعياً على مجراه وفتح نهراً من أمام هذا الناظم لأيصال المياه الى حديقة حيواناته وبركة قصره وسيأتي البحث عن كل هذه الاعمال فيما يلي :

وقد وصف جحظة البرمكي منطقة القاطول والقادسية فأنشد فيها أبياته التالية :—

الأهل الى الغدران والشمس طالعة سبيل ونور الخير مجتمع الشمل
ومستشرق للعين تغدو ضياؤه صوائد ألباب الرجال بلا نبل
الى شاطىء القاطول بالجانب الذي به القصر بين القادسية والنخل
الى مجمع للطير فيه رطانة يطيف به القناص بالخيل والرجل
فخانة من عيد اليهودي انها مشهرة بالراح معشوقة الأهل
وكم راكب ظهر الظلام مفلس الى قهوة صفراء معدومة المثل
إذا نفذ الخمار دنا بمنزل تبينت وجه السكر في ذلك المنزل
وكم من صريع لا يدير لسانه ومن ناطق بالجهل ليس بذي جهل
ترى شرس الاخلاق من بعد شربها جديراً ببذل المال والخلق السهل

جمعت بهـا شمل الخلاعة برهة وفرقت مالاً غير مصغ الى العذل
لقد غنيت دهراً بقربي نفيسة فكيف تراها حين فارقهـا مثـلي

ومما يسترعي الانتباه أن وصف جحظة للقصر من أنه يقع بين القادسية والنخل ينطبق على موقع المشرحات الذي كان فيه قصر الرشيد ثم صار فيه قصر المتوكل بعد أن أضاف اليه حير الحيوانات ، لأن المشرحات تقع بين القادسية من جهة « وأراضي الاجوى » التي فيهـا مزرعة حسين زغير الحالية من الجهة الثانية . والدليل على أن النخل الذي يشير اليه جحظة كان في اراضي الاجوى المذكورة (جمع جوة) أن هذه الاراضي تؤلف سهلاً خصباً يستدل من تخطيطه وتسميته بالأجوى على انه كان مقسماً الى بساتين . ومما لا شك فيه أن هذه البساتين كانت تروى من القـاطول الاعلى الكسروي بالطريقة السيحية . وتدل الروايات المحلية المتواترة على أنه عثر على بعض جذور نخيل قديمة في جوف الاراضي المذكورة أثناء حرثها أو حفر الآبار فيهما يؤيد أنها كانت بساتين نخيل.

تاريخ القادسية وتوسع عمرانها

ويظن أن تسمية القادسية قديمة فبعضهم يرى انها مدينة « كارهايه » (Carrhae) القديمة أو مدينة «ابامیا» التي ذكرها بلينيوس (٧١م) وقد ذكر كيبون (gibbon) أنها المدينة الآشورية « قادسيا » (Cadesia) ، وعلى كل فان من المرجح لدينا أن تاريخ انشاء القادسية يرجع الى عهود قديمة ، ثم أصبحت ذات شأن بعد أن انشىء النهروان هنـاك بمدخليه الصيفي والشتوي (مجري القائم والصنم) ، وقد توسعت بعد ان أنشأ الرشيد قصره فيها وشرع في انشاء مدينته هناك ثم نزول المعتصم فيها وانشائه بعض الابنية هناك قبل أن ينتهي الى مكان سر من رأى . ويغلب على الظن ان معمل الزجاج الذي نشاهد آثاره وبقايا زجاجه الآن في القادسية انشىء على عهد المعتصم أثناء تعمير مدينة « سر من رأى » ، حيث كان يزود منشئات المدينة الحديثة بالزجاج على اختلاف

انواعه . وقد ذكر ياقوت أن القادسية اشتهرت بمعامل الزجاج ونسب اليها قوم من الرواة ، كما ذكر ابن عبد الحق أن القادسية قرية كبيرة من قرى سامراء تقع على الجانب الشرقي من دجلة .

١١ ـ سور القادسية

وأهم ما نشاهده من الآثار في القادسية اليوم السور القديم المعروف بـ « سور القادسية » ، وهو الحصن الذي كان يقع بين مجرى القائم (المجرى الصيفي للنهروان) ومجرى الصنم (المجرى الشتوي للنهروان) ، اما اليوم فيقع بين مجرى القائم ودجلة ، لأن نهر دجلة محى معالم مجرى نهر الصنم نتيجة تحول عقيق دجلة نحو الشرق . والسور مبني باللبن ويحيط بساحة واسعة تشغل كل المساحة التي بين مجرى القائم الشمالي ومجرى الصنم الجنوبي تقريباً(١) ، ويناهز معدل قطر الساحة التي داخله ١٦٥٠ متراً ، وهو مثمن الاضلاع يبلغ معدل طول الضلع الواحدة من الخارج ٦٢٠ متراً وتدعمه من الخارج ١٧ دعامة (Buttress) نصف دائرية قطرها نحو ٤ر٧ أمتار ، وبين دعامة كل واخرى ٥ر٢٩ متراً ، وفي كل ركن من أركان السور الثمانية برج مدور يبلغ قطره زهاء ثمانية أمتار ، وسمك السور نحو أربعة أمتار ، أما ارتفاعه فيبلغ حوالي خمسة أمتار ، وتبلغ مساحة الأرض التي يشغلها نحو ٨٠٠ دونم (مشارة) .

---

(١) تبعد ضلع السور المحاذية لنهر القائم في ركنه الشمالي الغربي حوالي ٥٠٠ متر عن حافة نهر القائم وركنه الشمالي الشرقي زهاء ٢٧٠ متراً عن نهر القائم ، وتبعد ضلعه الجنوبية عن مجرى دجلة الحالي ٣٠٠ متراً تقريباً . وورد ذكر هذه المسافات في مقال « مدينة المعتصم » المنشور في مجلة سومر ، عدد تموز ١٩٤٧ (ص ١٦٧) ، بصورة اخرى ، فقد اعتبر بعد المسافة الأولى التي بين الركن الشمالي الغربي لضلع السور المحاذية لنهر القائم وبين نهر القائم ١٩٢٠ متراً وبعد المسافة الثانية التي بين الركن الشمالي الشرقي للضلع نفسه ونهر القائم ١٣٢٠ متراً . أما بعد المسافة الثالثة التي بين الضلع الجنوبية للسور ونهر دجلة فقد اعتبرت ١٨٠٠ متر .

ويشاهد من الداخل ان اضلاع السور تتألف من أروقة تملأ الفراغ الحاصل بين كل دعامة واخرى إلا في ضلعين متقابلتين منها توجد في وسطها زيادة في السمك بمقدار خمسة أمتار ونصف متر وبمسافة ٦٥ متراً من طول الضلع. وتحتوي هذه الزيادة على ثماني غرف ابعاد كل منها ٥ر٣ × ٣ر٧ مترات وقد عقدت بعقادة رأسية (Pointed arch) ارتفاعها ٢ر٧ متراً ورصف لبنها رصفاً رأسياً على جانبي الغرفة وعرض مدخلها ٨٥ سنتمتراً وسمك جدار جبهتها ١ر٩ متراً (راجع الرسم رقم ٨).

ويلاحظ في بناء السور ان اللبن المستعمل فيه يمتاز بكبر حجمه من دون كل ابنية سامراء العربية حيث يبلغ حوالي ٤٧ سنتيمتراً في الطول و٢٦ سنتيمتراً في العرض وزهاء ١٥ سنتيمتراً في السمك. وتشاهد في وسط الساحة معالم بعض المنشئات الصغيرة وهذه مبنية من اللبن والطين ومحاطة بأسوار داخلية واطئة. ويستدل من شكل هذه المنشئات ومن السور الخارجي الضخم ان البناية كانت حصناً ومعسكراً لجيش كبير هيئت له فيها وسائل الدفاع والحصار في آن واحد. وفي المنطقة التي حول سور القادسية بقايا مبان كثيرة تمتد على أطراف السور المذكور من الغرب والشرق والجنوب بين مجرى القائم ومجرى الصنم بعضها بالآجر والبعض الآخر باللبن. ومن أهم بقايا الأبنية التي بالآجر المفخور بقايا معمل الزجاج الواقع غربي السور وشرقي موقع الصنم تماماً[1]، ثم بقايا القصر الذي يقع في الجهة الجنوبية الشرقية من السور على الضفة الشرقية لنهر الصنم وهي الاطلال المسماة «الاصيبعين»، ولعل اطلال هذا القصر من بقايا القصر الذي بناه المعتصم في هذه المنطقة قبل ان ينتهي الى سامراء.

وتشاهد في الطرف الشمالي من سور القادسية آثار نهر واسع يخترق السور في الضلع الشمالية الغربية ويدخل الى الساحة التي في داخله ثم يتشعب الى

(١) راجع البحث الذي تقدم عن الصنم المذكور في صفحة ١٤٩

عدة شعب هنالك . وفي داخل السور أيضاً يدور بمحاذاة الاضلاع خندق يأخذ ماءه من النهر نفسه لا يزال ظاهراً . واذا تتبعنا آثار هذا النهر نجد انه يبدأ من القاطول الاعلى الكسروي فيتفرع من ضفته اليمنى في نقطة تقع على بعد ثلاثين كيلومتراً من صدره ، ثم ينحدر الى الجنوب قاطعاً المنطقة التي بين القاطول الاعلى الكسروي والقاطول الاسفل (مجرى القائم) ، فيعبر من فوق مجرى القائم على عبّارة في الموضع المسمى بـ « فكة القادسية » وينقسم بعد ذلك الى فرعين فرع يتجه شرقاً نحو السور حيث يخترقه ويدخل الى الساحة التي في داخل السور كما نوهنا اعلاه والفرع الثاني ينتهي الى نهر الصنم فيصب فيه . ولا شك ان الفرع الثاني هذا كان يصرف المياه الزائدة فيصبها في نهر الصنم ، ولا بد انه كان هناك بناء لتنظيم المياه .

ويلاحظ ان دائرة الآثار قد تصوّرت بأن نهر القادسية هذا يشتق من نهر القائم وينتهي فى دجلة ، وقد ذكرت ذلك في نشرتها عن سامراء المطبوعة في سنة ١٩٤٠ (ص ٧٢) فقالت ان القادسية تقع بين نهر القائم ونهر دجلة وفي طرفيها نهران مشتقان من القائم يصلان بينه وبين دجلة ، وهذا بعيد عن الواقع لان نهر القادسية المذكور كان يأخذ ماءه من القاطول الاعلى الكسروي وبعد أن يقطع المنطقة التي بين القاطول المذكور والقاطول الاسفل (نهر القائم) يعبر من فوق نهر القائم ثم ينقسم الى فرعين فرع ينتهي الى داخل سور القادسية وفرع آخر يصب في نهر الصنم كما اسلفنا . ولا شك في ان تغيّر الوضع بنتيجة تحوّل نهر دجلة الى الشرق وتقدم مجراه شرقاً ثم اقتلاع العبارة التي كان يعبر عليها النهر من فوق مجرى القائم كانا السبب الذي حدا بدائرة الآثار ان تتصور ذلك .

١٢ - تاريخ سور القادسية

وقد اختلفت الآراء حول بناء سور القادسية فاعتبره بعضهم من اعمال

العرب وعدّه البعض الآخر من أبنية الفرس ، فالدكتور روس الذي زار هذه المنطقة سنة ١٨٣٤ والتقط من جوارها القسم الاسفل من الصنم الاسود الذي كان على صدر المجرى الشتوي للنهروان[١] يعتقد انه يرجع الى عهد الساسانيين، اما مس بيل فقد خالفته في هذا الرأي، أي انها اعتبرته من اعمال العرب . وقد ذكر كريز ويل في كتابه « الفن المعماري الاسلامي القديم » انه من المحتمل ان يكون حصن القادسية من جملة أبنية المعتصم في القاطول قبل ان ينتهي الى سامراء[٢] . ومما يلفت النظر ان السير ويليم ويلكوكس قد ذهب الى ابعد حد في تعيين منشأ هذا السور فكان يعتقد انه يرجع الى العهد الذي انشيء فيه سد نمرود وهو عهد واغل في القدم يرجع الى ما قبل ٣٥٠٠ سنة[٣] . ويعتقد فيليكس جونس ان لهذا السور ارتباط وثيق بمجرى النهروان ، وعلى هـذا الاساس يجزم جزماً قاطعاً بأنه بني في العهد الذي انشيء فيه النهروان ثم هجر بعد هجران النهروان واضمحلاله .

اما دائرة الآثار العراقية فقد اعتبرت سور القادسية من اعمال العرب ومن جملة الابنية التي انشأها المعتصم على القاطول قبل ان يقيم مدينة سرّ من رأى[٤] وقد شاءت دائرة الآثار العراقية ان تتمسك بهذا الرأي على لسان مديرها العام معالي الدكتور السيد فاجي الأصيل الذي ذكر في عدد مجلة سومر الاخير[٥] ان سور القادسية من جملة ابنية المدينة التي ابتناها المعتصم على

---

(١) راجع البحث الذي تقدم عن ذلك في صفحة ١٥٠

(٢) راجع كتاب :

«Early Muslim Architecture», By K. A. C. Creswell, Part II , P.386 .

(٣) راجع ما تقدم في صفحة ١٧٧

(٤) راجع نشرة الآثار العراقية عن سامراء ص ٢٣

(٥) راجع مقال « مدينة المعتصم على القاطول » في مجلة سومر، الجزء الثاني ، المجلد الثالث، تموز (١٩٤٧) ص ١٦٠ ـ ١٧٠

القاطول قبل ان ينتهي الى سامراء . ومما يلفت النظر في هذا المقال ان تمسك دائرة الآثار العراقية بالرأي المذكور لم يستند الى دلائل مقنعة يمكن الركون اليها في قبول ما ذهبت اليه في هذا الخصوص ، ولا سيما إذا لاحظنا ما جاء في معجم ياقوت من اشارة صريحة الى ان حصن القادسية أثر للاكاسرة . فقد ذكر ياقوت في مادة (سامراء) « ان الرشيد أراد بناء سامراء فبنى بجذائها قصراً وهو بازاء اثر عظيم كان للاكاسرة» . والقصر الذي يشير اليه ياقوت هو نفس القصر الذي اقامه الرشيد على نهر أبي الجند في المشرحات (١) بجوار حصن القادسية الذي يسميه ياقوت « اثراً عظيماً للاكاسرة » . ولا يختلف اثنان على انه لو كان المعتصم أقام حصن القادسية وسوره لما اغفل المؤرخون العرب ذكره لا سيما وقد ذكروا من الأبنية ما هو دون سور القادسية بكثير من حيث الضخامة والسعة . هذا كما انه لا يمكن ان يكون السور قد اختفى عن انتباه الزائر أو التفات المستطرق نظراً لارتفاعه الذي يستوقف النظر من مسافة بعيدة .

١٣ رأينا في منشأ سور القادسية وتاريخه

اما رأينا في الموضوع فهو أن سور القادسية كان قد انشيء في زمن انشاء النهروان (اي في زمن انشاء مجريي القائم والصنم)، ودليلنا على هذا الرأي ان البناء مع دعاماته والغرف التي فيه والاروقة التي في اضلاعه من الاعمال الهائلة التي تتطلب وقتاً طويلاً وجهوداً جبارة، ولا سيما اذا لاحظنا أن بناء السور يستوجب احضار مالا يقل عن خمسين مليون لبنة من النوع الضخم الذي بني به السور . ولا يخفى ان تخطيط مثل هذا الحصن بشكله المثمن على الارض من الامور الهندسية الصعبة التي تحتاج الى مهارة هندسية ودقة فنية كما انه يحتاج الى وقت كاف ، ليس بالنسبة الى ذلك الوقت فقط بل بالنسبة الى وقتنا الحاضر أيضاً رغم

(١) راجع ما تقدم في ص ٢٢٦ و ٢٣٣

توفر الآلات الهندسية الدقيقة التي تساعد على رصد الزوايا بصورة متقنة . ولا يسع المرء ان يتصور قيام المعتصم بمثل هذا العمل الجبار خلال المدة القصيرة التي قضاها في هذا المكان قبل ان ينتهي الى انشاء سامراء .

ان المدة التي قضاها المعتصم في القاطول ، بالنظر الى نتائج تدقيقاتنا للمعلومات التاريخية المتوفرة ، لم تتجاوز الشهرين أو الثلاثة اشهر على الاكثر ، وتثبيتاً لذلك لنتتبع خطوات المعتصم منذ ان غادر بغداد حتى انتهى الى سامراء : فقد اجمع المؤرخون على ان المعتصم غادر بغداد في سنة ٢٢٠هـ(٨٣٥م)، ويستدل مما رواه الطبري وابن الأثير ان خروجه من بغداد كان في أواخر تلك السنة ، إذ ذكر الطبري انه خرج في شهر ذي القعدة منها(١)،اما ابن الاثير فبعد ان أيد خروجه في سنة ٢٢٠ هـ ذكر بأنه «صلى بالناس العيد (أي عيد الاضحى) ومعنى ذلك شهر ذي الحجة من سنة ٢٢٠ هـ(أي في شهر تشرين الثاني من سنة ٨٣٥م) ولم يدخل بغداد بل سار الى ناحية القاطول ولم يعد الى بغداد . » ويروي لنا اليعقوبي في كتاب «البلدان» أن المعتصم اقام في بغداد حوالي اربع سنوات بعد ارتقائه عرش الخلافة في ١٩ رجب من سنة ٢١٨هـ . (٤ آب ٨٣٣م) ثم خرج الى القاطول في سنة ٢٢١هـ . ومع ذلك فانه يعين في تاريخه المفصل موعد خروج المعتصم الى القاطول في منتصف ذي القعدة سنة ٢٢٠هـ . وهذا نص قوله : « وخرج المعتصم الى القاطول في النصف من ذي القعدة سنة ٢٢٠هـ . فاختط موضع المدينة التي بناها واقتطع الناس المقاطع وجدّ في البناء حتى بنى الناس القصور والدور وقامت الاسواق ثم ارتحل من القاطول الى سر من رأى »(٢) . كل هذا مما يدل على ان المعتصم خرج الى القاطول في حوالي اواخر سنة ٢٢٠ هـ . او أوائل سنة ٢٢١ هـ على اكثر تقدير . ولدينا من الأدلة التاريخية على انه مكث بعض الوقت في

---

(١) الطبري (٣ : ١١٧٩) .

(٢) تاريخ اليعقوبي ، الجزء الثالث (طبعة النجف) ص ١٩٨

اماكن عديدة في طريقه بين بغداد والقاطول فتوجه اولاً الى الشماسية فعزم ان يبني بهـا مدينة خارج بغداد « فضاقت عليه ارض ذلك الموضع وكره ايضاً قربها من بغداد فمضى الى البردان ... وذلك في سنة احدى وعشرين ومائتين وأقام بالبردان اياماً ثم لم يرض الموضع فصار الى موضع يقال له باحمشا من الجانب الشرقي من دجلة فقدر هناك مدينة على دجلة وطلب موضعاً يحفر فيه نهراً فلم يجده فنفذ الى القرية المعروفة بالحظيرة فأقام بها مدة ثم مد الى القاطول ويكون البناء على دجلة وعلى القاطول ... ثم قال ارض القاطول غير طائلة وإنما هي حصا وافهار والبناء بها صعب جداً وليس لأرضها سعة »(١). وقد ذكر ابن الاثير أن ابتداء العمارة بسامراء كان في سنة احدى وعشرين ومائتين(٢) ، فأيد المسعودي ذلك فقال بعد ان وصف الاعمال التي قام بها المعتصم لتأسيس عاصمته الجديدة في سامراء : ـ « وكان بدء ما وصفنا فيما فعله المعتصم سنة احدى وعشرين ومائتين . » أما ياقوت فقد ذكر في مادة سامراء أن المعتصم بنى سامراء ونزلها في سنة ٢٢١هـ .

يتضح مما تقدم أن الوقت الذي استغرقه سفر المتوكل بين بغداد وسامراء ، ثم المدة التي قضاها ما كثاً في « الشماسية » و « البردان » و « باحمشا » لتصميم البنـاء الذي اعتزم القيام به هناك ، مضافاً الى المدة التي استغرقها البنـاء في القاطول وابتداء العمارة في سامراء ، كل ذلك كان في سنة ٢٢١هـ . مما يدل على أن المعتصم لم يسعه المكوث في القاطول أكثر من شهرين أو ثلاثة أشهر كأقصى حد ، فهل كان في امكانه أن ينشىء سور القادسية الجسيم ثم يحفر النهر الواسع الذي يتفرع من القاطول الأعلى وينتهي الى داخل سور القادسية في بحر تلك المدة القصيرة ؟...

---

(١) كتاب « البـلدان » لليعقوبي .

(٢) ابن الأثير الجزء السادس ، ص ٣١٩

ومن المهم أن نذكر في هذا الصدد أن خروج المعتصم كان في اوائل الشتاء وقد اتفق وصوله الى القاطول في قلب الشتاء ، أي في موسم الامطار ، وهو الموسم الذي يجعل قطع اللبن وتهيئته للبناء من الصعوبة بمكان إذ تحول الامطار دون عمله وجفافه ، ونظرة واحدة الى سور القادسية تحملنا على الاقتناع ـ بدون أي تردد ـ على أن تهيئة اللبن المطلوب لمثل هذا البناء الجسيم يحتاج الى موسمين صيفيين على الاقل ، على حين أن المعتصم لم يتسن له أن يقضي موسماً صيفياً واحداً في القاطول . وقد أيّد المسعودي وصول المعتصم الى القاطول في اوائل فصل الشتاء ومكوثه هناك خلال فصل الشتاء فقال : « ونالت من المعتصم شدة عظيمة لبرد الموضع وصلابة ارضه وتأذوا ليالي ففي ذلك يقول بعض من كان في الجيش :

« قالوا لنا بالقاطول مشتانا فنحن نأمل صنع الله مولانا
« الناس يأتمرون الرأي بينهم والله في كل يوم محدث شانا

« ولما تأذى المعتصم بالموضع وتعذر البناء فيه خرج يتقرى المواضع فانتهى الى موضع سامراء . »

وقد اختلف المؤرخون في منشأ فكرة اتخاذ سامراء مقراً للعاصمة ، فهل كان المعتصم مسبوقاً بها قبل أن يغادر بغداد أو أنه عمل فكرته هذه بعد أن شيد بناءه في القاطول ثم انتهى الى سامراء عن طريق الصدفة ، فكانت الفكرة بنت ساعتها ؟... فقد جاء في الطبري أن المعتصم قبل ان يخرج الى القاطول أوفد في سنة ٢١٩هـ . أبا الوزير احمد بن خالد « لشراء موضع في ناحية سامراء فاشترى بسامراء الدير من النصارى بخمسمائة درهم واشترى موضع البستان الخاقاني بخمسة آلاف درهم واشترى عدة مواضع فعزم على الخروج اليها في سنة ٢٢٠هـ . فخرج حتى إذا قارب القاطول ضربت له فيه القباب والمضارب وضرب الناس الاخبية ثم لم يزل يتقدم وتضرب له القباب حتى وضع البناء في

سنة ٢٢١هـ .[١] أما اليعقوبي فيرى رأياً آخر إذ يقول أن المعتصم بعد ان بنى ما بناه في القاطول ركب متصيداً فمرّ في سيره حتى صار الى موضع سر من رأى حيث وجد ديراً للنصارى « فعزم على ان ينزل بذلك الموضع فأحضر محمد بن الملك الزيات وابن ابي دؤاد وعمر بن فرج واحمد بن خالد المعروف بأبي الوزير وقال لهم اشتروا من اصحاب هذا الدير هذه الارض وادفعوا اليهم ثمنها اربعة آلاف دينار ففعلوا ذلك[٢] .» وهناك ما يؤيد ان نية المعتصم كانت متجهة نحو انشاء عاصمته في سامراء منذ سنة ٢١٩هـ ، فقال الطبري أن المعتصم خرج في سنة ٢١٩هـ . « يريد القاطول ويريد البناء بسامراء فصرفه كثرة زيادة دجلة فلم يقدر على الحركة فانصرف الى بغداد الى الشماسية[٣] . » . فاذا اعتبرنا رواية الطبري صحيحة ، وهي ان المعتصم كان مسبوقاً بفكرة انشاء عاصمته فى سامراء قبل ذهابه اليها، فقد يصح لنا ان نقول بأن البناء الذي اقامه في القاطول لم يكن إلا عملاً عرضياً لا يخرج عن كونه بناء اقيم على مدخل العاصمة الجديدة

---

(١) كتب الطبري في هذا الصدد قال : — « ذكر عن أبي الوزير أحمد بن خالد أنه قال بعثني المعتصم فى سنة ٢١٩ وقال لي يا أحمد اشتر لي بناحية سامراء موضعاً أبني فيه مدينة فاني أتخوف أن يصيح هؤلاء الحربية صيحة فيقتلون غلماني حتى أكون فوقهم فان رابني منهم ريب أتيتهم في البر والبحر حتى آتي عليهم وقال لي خذ مائة ألف دينار . قال قلت آخذ خمسة آلاف دينار فكلما احتجت الى زيادة بعثت اليك فاستزدت قال نعم فأتيت الموضع فاشتريت سامراء بخمسمائة درهم من النصارى أصحاب الدير واشتريت موضع البستان الخاقاني بخمسة آلاف درهم واشتريت عدة مواضع حتى أحكمت ما أردت ثم انحدرت فأتيته بالصكاك فعزم على الخروج اليها في سنة ٢٢٠هـ فخرج حتى اذا قارب القاطول ضربت له فيه القباب والمضارب وضرب الناس الأخبية ثم لم يزل يتقدم وتضرب له القباب حتى وضع البناء بسامراء فى سنة ٢٢١ » .

(٢) كتاب « البلدان » لليعقوبي .

(٣) قال الطبري : «فلما كانت سنة ٢١٩ وقيل سنة ٢٢٠ وذلك عندي خطأ خرج المعتصم يريد القاطول ويريد البناء بسامراء فصرفه كثرة زيادة دجلة فلم يقدر على الحركة فانصرف الى بغداد الى الشماسية ثم خرج بعد ذلك فلما صار بالقاطول غضب على الفضل ... الخ » .

(سامراء) بصورة موقتة ، وعلى هذا لا يمكن ان يشتمل على بناء ضخم مثل بناء « حصن القادسية » الجسيم وسوره العظيم. ولا بد من التنويه في هذا الصدد الى ان فكرة البناء في سامراء لم تكن من بنات افكار المعتصم وإنما قد سبقه الرشيد اليها ، وفيما ذكره ياقوت من ان « الرشيد اراد بناء سامراء ثم بناها المعتصم ونزلها في سنة ٢٢١ » أوضح دليل على ذلك .

وفضلاً عن ما تقدم فان هناك ادلة تاريخية على ان موقع القادسية كان موجوداً في عهد الفرس حيث كانت هناك منتزهات تعد من اجل المنتزهات العراقية في ذلك العهد . ولدينا في تسمية القادسية نفسها ما يجعلنا ان نتحول بتفكيرنا الى قادسية الكوفة التي تعود الى عهد الفرس ، وهذا يؤيد ترجيح رجوع تسمية قادسية سامراء الى ذلك العهد ايضاً لوجود الشبه بين التسميتين .

وأخيراً نرى فيما ذكره ياقوت من « ان الرشيد بنى قصراً بازاء اثر عظيم كان للاكاسرة » دليل تاريخي موثوق على ان حصن القادسية من عمل الأكاسرة ، ولا شك في ان المقصود بـ (الاثر العظيم) حصن القادسية نفسه ، وهو الحصن الذي لا يزال يعد اعظم اثر في منطقة القادسية حتى الآن .

ولنفترض سؤالاً آخر : فاذا قلنا ان سور القادسية من عمل المعتصم فما هي الاسباب التي دفعت به لأنشاء هذا الحصن الضخم المنيع ؟... هل كان ينوي ان يحاصر مع جنوده فيه ، وهل كان هناك غزو يقوم به الرومان او غارات يقوم بها الفرس مما يضطره لأنشاء مثل هذا الحصن الهائل ؟؟... ولا بد من الملاحظة في هذا الصدد بأن تصميم بناء هذا الحصن يمتاز بفنه الهندسي الدقيق ، الأمر الذي يدل على انه وضع بعد دراسة فنية دقيقة وتحريات تمهيدية عميقة استغرقت بعض الوقت على عكس ما نراه في الأبنية المجاورة التي تدل بقاياها على انها بنيت بدافع الحاجة الآنية ووضعت تصاميمها بصورة ارتجالية ، وإذا ما قارنا تصميم بناء « حصن القادسية » مع شكل بناء « معسكر الاصطبلات » في الجهة

الغربية من نهر دجلة ، وهو المعسكر الذي انشأه المعتصم على ما نعتقد ، اتضح لنا الفرق العظيم بينهما . هذا من جهة ، أما من حيث الدلائل الفنية التي لا تقبل الشك ، فهناك ما يدل على ان النهر الذي كان يأخذ ماءه من القاطول الكسروي وينتهي الى داخل حصن القادسية هو نهر قديم للغاية وانه واسع بحيث لا يمكن ان نتصور عمله من قبل المعتصم، إذ لم يكن لدى المعتصم الوقت الكافي لقيامه بمثل هذا المشروع الضخم... هذا الى ان هناك دلائل تؤيد لنا بأن الحصن انشيء في نفس الوقت الذي انشيء فيه «النهروان» وذلك بين صدريه (مجرى القائم ومجرى الصنم)، كما ان هناك دلائل ثابتة تؤيد ان النهر الذي ينتهي الى الحصن انشيء بعد ان اقام كسرى مشروع القاطول الأعلى الكسروي ثم هجر النهر ومعه الحصن بعد ان هجر مجرى القائم الذي يقع عليه الحصن في اواخر عهد كسرى عند ما حفر مجرى القورج مكانه . ولا يخفى ان مجريي القائم والصنم كانا مندرسين ومهجورين وكذلك حصن القادسية ، حين قرر الرشيد ترك مجرى القورج والرجوع الى صدري القائم والصنم باعادة حفر الاول . وقد أعاد الرشيد احياء مجرى القائم ولكنه لم يفكر في اعادة احياء نهر القادسية القديم الذي كان يتفرع من القاطول الاعلى الكسروي وينتهي الى الحصن حيث لم يعد بحاجة اليه بعد ان هجر حصن القادسية ، على أن من المحتمل انه استغل القسم الشمالي من هذا النهر فأعاد حفر هذا القسم لايصال المياه الى حدائق قصره في «المشرحات» شمالي شرقي حصن القادسية على الضفة اليسرى لنهر القائم، وكذلك لايصال المياه الى الاراضي المجاورة للقصر من الشرق والجنوب ما بين القاطول الأعلى ومجرى دجلة القديم(١) . والدليل على هذا الاحتمال اننا نجد عدداً من المجاري المندرسة في صدر هذا النهر يرجح أن بعضها حفر في زمن الرشيد للغرض المذكور . وعلى كل فان وجود كثرة هذه المجاري في الصدر يدل على انه كان يصعب ادخال المياه الصيفية في النهر نظراً لعدم وجود ناظم أو سد على

(١) راجع البحث الذي تقدم حول «قصر المشرحات» في ص ٢٣٩-٢٤١

مجرى القاطول الأعلى الذي يمكن حجز المياه أمامه ورفع مناسيبها لتأمين دخولها الى النهر في كل المواسم حسب مقتضى الحاجة ، وسنرى كيف تلافى المتوكل ذلك عندما اعتزم انشاء حدائقه في « الشرحات » ، ولعل السبب في عدول الرشيد عن انجاز المدينة التي كان ينوي انشاءها في هذه المنطقة صعوبة ايصال المياه اليها في كل مواسم السنة بصورة منتظمة .

كل هذه الدلائل مجتمعة تثبت لنا ان سور القادسية انشيء في نفس الوقت الذي انشيء فيه النهروان (أي في عهد الفرس) وانه انشيء جرياً على العادة المألوفة في ذلك الوقت ، وهي اقامة حصون منيعة على صدور الجداول المهمة للمحافظة عليها والحيلولة دون وقوعها بيد العدو ، إذ يؤدي استلاؤه عليها الى قطع الماء عنها . ولا شك في أن هذا الحصن انشيء في الوقت الذي كانت البلاد مهددة بغارات الرومان وغزوهم دوماً . وإذا سلمنا بالنظرية القائلة بأن مشروع النهروان نفسه كان في الأصل مشروعاً عسكرياً دفاعياً أكثر منه زراعياً يسهل علينا ادراك ضرورة وجود مثل هذا الحصن على صدر النهر[1] .

وأخيراً فان هناك نقطة لا بد من الاشارة اليها وهي ان اللبن الذي انشيء به حصن القادسية أقرب إلى أحجام اللبن أو الآجر الذي استعمله الفرس في بناياتهم منه إلى أحجام اللبن أو الآجر الذي استعمله العرب ، وقد لاحظنا ان حجم اللبن الذي بني به حصن القادسية (وهو ٤٧ × ٣٠ × ١٥ سنتيمتراً) قريب جداً من حجم الآجر المستعمل في بناء السد الغاطس المبني في ذنائب القاطول الأعلى الكسروي ، وهو السد الذي لا مجال للشك في انه من آثار الفرس . وهناك أبنية اخرى مبنية بلبن من هذا الحجم وهي من الأبنية التي ثبت رجوعها الى عهد الفرس أو الى ما قبله واعني بها « قلعة الناي » التي بني سورها

---

(١) راجع البحث الذي تقدم في صفحة ١٥٧

بلبن حجمه (٤٥ × ٤٠ × ١٥ سنتيمتراً [١] و « جدار المطبق »[٢] و « وقلعة أم الرؤس »[٣] المبنيين باكبر أنواع اللبن القديم .

ولا بد من الاضافة في هذا الصدد الى اننا لم نعثر أثناء تجوالاتنا الكثيرة في خرائب سامراء العربية على بناء مبني بلبن يضاهي حجمه حجم اللبن الذي انشىء به حصن القادسية .

١٤ ـ رأي هرزفلد في سور القادسية ونهر أبي الجنر

يعد الدكتور هرزفلد حجة في أمور سامراء القديمة فهو العالم الغربي الوحيد الذي انصرف الى دراسة هذه المنطقة دراسة علمية دقيقة وقد ألف فيها عدة كتب ، وقد اتصلت مديرية الآثار العراقية العامة بهذا المستشرق مستفسرة آراءه حول القادسية وموضع المشرحات وغيرها من الامور المتعلقة بتاريخ المواقع الأثرية في سامراء ، وكان ذلك على أثر ما نشرته في بعض الصحف عن نتائج دراساتي في منطقة سامراء ولا سيما ما يختص بموقع « المشرحات » الذي لم يكن لدائرة الآثار علم به قبل ذلك . وقد أجاب الدكتور هرزفلد على طلب الدائرة المذكورة بتاريخ ٢٧ تموز ١٩٤٧ مبيناً آراءه حول ذلك ، واليك ما ذكره عن سور القادسية في جوابه، قال: « لقد اصبتم في تعيين موقع منشئات المعتصم الأولى المهجورة في مكان اطلال القاطول في جنوب سامراء ، وقد

---

(١) حول القلعة المذكورة راجع البحث الذي تقدم في صفحة ٢١٤ (حاشية ١)

(٢) راجع البحث الذي تقدم عن « جدار المطبق » في صفحة ١٧٥

(٣) « قلعة أم الرؤس » بناء يقع على ضفة نهر الفرات الشرقية على بعد حوالي اربعين كيلومتراً من شمالي الفلوجة وهو مبني بأكبر انواع اللبن القديم ايضاً ، وتشبه هذه القلعة في شكل بنائها « قلعة الداي » فتشتمل على ساحة مربعة مسورة بجدار عال يبلغ طول ضلعه حوالي ١٥٠ متراً . ويقول الاهلون انهم عثروا في هذه القلعة على مقبرة وضعت جثث الموتى فيها داخل أواني من الفخار مما يدل على ان البناء يرجع الى العهد الفرثي .

كنت اعتقد بأن البناء المثمن الكبير (ويقصد سور القادسية) هو المدينة التي أقامها الرشيد على القاطول إلا اني وجدت أخيراً بأن هذه البناية غير الكاملة من منشئات المعتصم المهجورة أيضاً »(١) . وقد بعث الدكتور هرزفلد بجوابه هذا الى دائرة الآثار قبل أن يقف على ملاحظاتي المذكورة حول الموضوع ، ولما ارسلت اليه خلاصة المحاضرة التي القيتها في نادي القلم العراقي حول الموضوع والتي نشرت في بعض الصحف في حينه (٢) ، وبعد ان شرحت له خلاصة ما توصلت اليه من نتائج بعد اجراء تحقيقاتي في منطقة سامراء (وهي نفس النتائج التي شرحتها في مؤلفي هذا) أجابني في كتابه المؤرخ ٢٩ آب ١٩٤٧ ، أي بعد ارساله كتابه الى مديرية الآثار العامة بحوالي الشهر ، قال مانصه : « بناء على مذكراتي المدونة قبل عشر سنوات اني أؤيد كل ما ذهبتم اليه بمقالكم تقريباً عدا ما جاء حول سور القادسية المثمن الذي لا يزال مشكوكاً في امره . فيظهر ان البناية هذه غير كاملة وعلى المرء ان يلاحظ أيضاً احتمال كون البناية من عمل هرون الرشيد . وهناك المسألة الكبرى ، هي مسألة قاطول ابي الجند ، كما ان هناك بالطبع القاطول الكسروي الذي يتصل بمشروع النهروان والذي يرجع الى العهد الساساني . اما بناية سور القادسية فاني أتردد في اعتبارها ساسانية(٣).

---

(١) وهذا نص قوله باللغة الانكليزية : ـ

« You are right in identifying the ruins on the Qatul south of Samarra with the first, abandoned foundation of al Mu 'tasim . After first having thought that the big octagon was the villa of Harun Al-Rashid on his Qatul, I later found out that this unfinished building belongs also to the abandoned foundation of Al-Mu' tasim.»

(٢) راجع جريدة البلاد ، الاعداد الصادرة في ١٧ و ١٨ و ٢٠ و ٢٣ آذار سنة ١٩٤٧

(٣) وهذا نص قوله باللغة الانكليزية :—

« I agree (the text was written 10 years ago) with almost every point you say only the great =

وقد ذكر لنا الدكتور هرزفلد في جوابه أيضاً أنه قائم بطبع الجزء السادس من مؤلفه عن سامراء وفيه على ما يقول بحث وخارطة عن هذه الأماكن ، إلا أن الجزء المذكور لم يصلنا ومؤلفنا هذا ماثل للطبع .

يستفاد من ملاحظات هرزفلد المذكورة انه لا يزال متردداً في أمر سور القادسية وانه لم يستطع ان يتوصل الى رأي ثابت حول ذلك ، فبعد ان أيد الى دائرة الآثار انه انتهى الى الرأي القائل بأن سور القادسية من عمل المعتصم بعد ان كان يعتقد انه من عمل الرشيد ، يرجع فيرجح في كتابه الينا ان بناء السور قد يرجع الى عهد الرشيد ، ويضيف الى ذلك قوله ان ما يتعلق بتاريخ انشاء هذا السور لا يزال مشكوكاً فيه. ويتضح للقارىء من ملاحظات هرزفلد أيضاً انه يعتبر قضية « نهر أبي الجند » عويصة لم يستطع التوصل الى حقيقة امرها. ولذلك نراه قد احجم عن ابداء أي رأي حوله في كتابه الينا ، مع انه بيّن بعض الملاحظات عنه الى دائرة الآثار في كتابه الموجه اليها قال فيه مانصه : « ان المجريين اللذين لا يزالان موجودين واللذين يسيران من الغرب الى الشرق (ويعني بذلك مجريي القائم والصنم) هما قاطولا اليهودي والمأموني وكلاهما يعودان الى ما قبل عهد المعتصم . اما الثالث وهو المجرى الرئيسي ـ قاطول الرشيد المسمى ابو الجند ـ فكان موازياً المجريين المذكورين من الجنوب وقد لاحظت آثار قطعتين أو ثلاث منه في الضفة الجنوبية الحالية من سهل سامراء

= octagon of Qadissiyah itself remains doubtful; it is evidently an unfinished building, and one must also consider Harun Al-Rashid as possible author « the great problem of the Qatul abu'l Jund ». Of course there was a Sassanian Qatul Al - Kisrawi , connected with the Nahrawan system , but I hesitate to consider Qadissiyah as Sassanian . »

المرتفع . والارجح ان ابا الجند كان يجتاز ملتقى العظيم بدجلة فيسير الى بعض المسافة موازياً القاطول الكسروي الذي يأتي من الشمال حتى يجتمع الاثنان فيكوّنان النهروان . والذي حدث في زمن المستنصر هو أن نهر دجلة ترك مجراه المستقيم من جنوبي القادسية مباشرة وتحوّل في قعر قاطول أبي الجند ، وعلى أثر ذلك انشأ المستنصر نهر دجيل (الشطيط) في وسط قعر دجلة القديم اليابس(١) . »

وفي رأينا ان كل هذا بعيد عن الصواب وقد شرحنا تفاصيل الوضع في الفصول المتقدمة واوضحنا حوادث انشاء نهر القورج ، ثم اعادة حفر نهر القائم على عهد الرشيد وهو النهر الذي سمّي بأسم « أبي الجند » ، واخيراً تحوّل نهر دجلة في مجرى القورج للاسباب التي اوردناها في هذا الخصوص(٢). فيتضح

---

(١) وهذا نص قوله باللغة الانكليزية : ـ

«The two branches still existing (running w to E) are the Q. al - Yahudi and al-Ma' muni , both older than al - Mu'tasim . The third and main branch , the Q. abul - Jund of Harun , ran parallel to them in the south . I observed two or three traces of it in the present southern bank of the higher level of the Samarra plain . The abul-Jund must have passed the modern junction of Adaim and Tigris and have paralleled for some distance the continuation of the Q . al - Ki srawi , coming from the north , until both become the «Nahra - wan » . What happened at the time of al-Mustansir was that the Tigris left the straight line of its bed just below Qadissiyah and broke into the bed of the abu - l - jund . Mustansir , then , built the Dujail (shutait) canal in the dry bed of the old Tigris . »

(٢) راجع البحث الذي تقدم في ص ٢١٢ و ٢٢٦ و ٢٢٩

من ذلك ان آثار القطعتين أو القطع الثلاث من النهر التي لاحظها هرزفلد في الضفة الجنوبية الحالية من سهل سامراء المرتفع ما هي إلا بقايا « نهر القورج » الذي احتله نهر دجلة بعد تحوّله الى الشرق . ويستفاد من ملاحظات المشار اليه انه لم يتتبع موضوع نهر القورج وتطورات هذا النهر الذي لعب دوراً خطيراً ليس في تاريخ ري سامراء حسب وانما في تاريخ بغداد نفسها أيضاً . اما نهري « اليهودي » و « المامواني » اللذين يشير اليهما هرزفلد ويرى انهما كانا يسيران في اتجاه نهري القائم والصنم فهما النهران اللذان ذكرهما ابن سرابيون وقد شرحنا رأينا عنهما في البحث الذي يلي (١) .

والظاهر انه لم يكن لدى هرزفلد مجال لدراسة جغرافية منطقة سامراء القديمة وهي الدراسة التي تتصل بتاريخ الانهر وتطورات مجرى دجلة في تلك المنطقة اتصالا مباشراً ، وقد حصر اهتمامه في الحفريات الأثرية في الاماكن البارزة كـ « بيت الخليفة » و« المنقور » و « العاشق » ، وعلى هذا انحصرت ابحاثه ودراساته كلها تقريباً في الأبنية والاساليب المتخذه لتزيينها وتزويقها وتحسينها ، أي الصنائع الفنية الاسلامية كالنقوش والزخارف الجصية والتخاريم وغيرها من الآثار المتعلقة بذلك ، ولا شك انه خدم بهذا الفن العربي خدمة جليلة يقدّر عليها كل تقدير .

١٥ - موقع منشئات المعتصم على القاطول

أما المنشئات التي أقامها المعتصم في هذه المنطقة قبل ان ينتهي الى سامراء فهناك مصدران يمكن الاستعانة بهما على تعيين مكانها ، أولهما ما دونه المؤرخون من ان المدينة التي انشأها المعتصم تقع على دجلة وعلى القاطول ، وثانيهما بقايا الابنية التي تشاهد في هذه المنطقة . والذي نستخلصه من المصدر الأول هو أن

(١) راجع البحث التالي الخاص بـ « نهر نيزك وقواطيل ابن سرابيون الثلاثة » في الفصل السادس [مادة ٤]..

المدينة بما فيها القصر كانت على ضفتي نهر الصنم الأسفل ، شرقي سور القادسية . وينطبق هذا المكان تماماً على وصف المؤرخين للمنطقة التي انشئت فيها المدينة ، فان هذا الموضع ، كما ذكر المؤرخون ، ضيق لامجال فيه للتوسع كما ان أراضيه مكوّنة من حصى وافهار لا تساعد على البناء(١) . وكل هذا يدلنا على ان المعتصم كان يحرص كل الحرص على أن يجعل مدينته تشرف على نهردجلة وتتصل به على طول امتدادها ، بغية جعل بنايات السكن قريبة من ضفته مما يسهل نقل مياه الشرب اليها ، وهكذا فقد انحصرت المدينة في المنطقة الضيقة الواقعة بين الضفة اليمنى لمجرى القائم والضفة اليسرى لمجرى الصنم وفي منطقة الساحل الضيقة التي على دجلة وهي المنطقة الواقعة على الضفة اليمنى من نهر الصنم، كل هذا حرصاً على تحقيق رغبة جعل المدينة متصلة بدجلة . أما الأبنية التي على ساحل دجلة والواقعة على الضفة اليمنى لنهر الصنم فقد اكتسحها مجرى دجلة كما اكتسح مجرى الصنم نفسه بحيث لم يبق أي أثر يستدل به على هذا المكان. واما الأبنية التي على الضفة اليسرى من نهر الصنم فلا تزال آثارها ماثلة للعيان يمكن مشاهدتها بين مجرى القائم ومجرى الصنم ، شرقي سور القادسية، وهي مؤلفة من عمارات متقطعة مبنية باللبن والطين عدا القصر الذي في تل الاصيبعين (وهو القصر الذي بناه المعتصم على ما نعتقد) ، فهو مبني بالآجر ، ويستدل من آثاره على انه كان قصراً واسعاً . اما حصن القادسية الذي يقع غربي أبنية المعتصم فالأرجح ان المعتصم استعمل ساحته لنصب الخيم ، ولعل الابنية الطينية التي في داخل الحصن انشئت من قبله في ذلك الوقت أيضاً لسكنى قواد الجيش وعوائلهم .

١٦ ـ منشئات المعتصم على القاطول و « اطلال الاصطبلات »

نستخلص مما تقدم ان حدود مدينة المعتصم لم تتعدّ حدود الضفة اليمنى

(١) راجع وصف اليعقوبي الذي تقدم في ص ٢٣٧ و ٢٥٤

لمجرى القائم لأن المنطقة الشمالية التي على الضفة اليسرى لمجرى القائم ، أي منطقة «المشرحات» التي بنى بها الرشيد قصره ، منطقة واسعة جداً وفيها من الاراضي السهلة الخالية من الحصى ما يحقق التوسع المطلوب فيما لو رغب المعتصم أن يبتعد عن نهر دجلة ويتجه نحو تلك المنطقة . وعلى هذا فاننا نعتقد ان المعتصم كان قد رسم في ذهنه خطة ترمي الى بناء مدينته الجديدة على نهر دجلة وجعل التوسع على طول مجرى النهر على ان يستفاد من ضفتيه في هـذا التوسع عند الضرورة ، وهي الخطة التي اتبعها بعد ذلك في تخطيط مدينة سامراء ، الأمر الذي يحملنا على الاعتقاد بأن بقايا أبنية «الاصطبلات» الواقعة أمام مدينة المعتصم والتي تمتد على طول الجانب الايمن من دجلة هي من بقايا أبنية المعتصم ، وهي الثكنات التي بناها لجنوده والاصطبلات التي انشأها لخيله . وهناك ما يدل على ان هذه الثكنات بقيت مشغولة من قبل الجيش العباسي بعد انتقال المعتصم الى سامراء ولعلها استعملت في عهد الخلفاء الذين جاؤا من بعده أيضاً. اما العامل الذي حمله على بناء هذه الثكنات في الجانب الغربي من دجلة فهو نفس العامل الذي حمله بعد ذلك على عزل سكن الجيش عن سكن أهل المدينة في سامراء ، ولا يخفى ان هذا العامل هو العامل الأساسي الذي حمله على ترك مدينة بغداد وانشاء مدينة جديدة ، بحيث يتسع له المجال فيها لفصل سكن الجيش عن الاهلين وعزل أقسام الجيش حسب عناصرهم الواحد عن الآخر . ولا شك في أن المعتصم كان ينوي اقامة جسر هناك كما فعل بعد ذلك في سامراء[1] .

١٧ كهريز المعتصم في القادسية

ويلاحظ ان المعتصم انشأ كهريزاً لايصال مياه الشرب الى مدينته الجديدة

---

(١) حول معسكر «الاصطبلات» المذكور راجع ماتقدم في ص ٩٣-١٠٣ والرسم رقم ٩ .

على القاطول[١] فيستمد هذا الـكهريز المياه من نهر دجلة في نقطة تقع على بعد حوالي كيلومترين من شمالي صدر نهر الصنم ثم يسير شرقاً باتجاه حصن القادسية فيخترقه من جهته الشمالية حتى ينتهي الى بنايات مدينة المعتصم شرقي الحصن . وقد انشيء هذا الـكهريز في مجريين متوازيين احدهما خاص بموسم الفيضان والثاني خاص بالموسم الصيفي . ويبلغ طول هذا الـكهريز من صدره حتى بنايات المعتصم زهاء اربعة كيلومترات (راجع الرسم رقم ٨) . وانشاء هذا الـكهريز يؤيد ما ذهبنا اليه من أن نهر القادسية الذي كان قد حفره كسرى لحمل المياه من القاطول الـكسروي الاعلى الى حصن القادسية كان مندرساً في زمن المعتصم ، إذ لو كان هذا النهر عامراً في ذلك الوقت لما احتاج المعتصم الى انشاء هذا الـكهريز لايصال المياه الى المنطقة المجاورة للحصن .

ويظهر ان انشاء الـكهاريز كان من الاعمال المألوفة في منطقة سامراء ، وكان يلجأ اليها في اكثر الحالات المستعجلة التي تتطلب السرعة لايصال المياه الى امكنة السكن نظراً لما في عمل الـكهاريز من توفير في عمليات الحفر باعتبار ان الـكهريز لا يحتاج الى غير نفق ذي حجم محدود ، ولنا في الكهريز الذي انشأه المتوكل لايصال المياه الى مدينة المتوكلية ، قبل اتمام حفر نهر المتوكل[٢] ، دليل شبه بعمل المعتصم الذي يرمي الى ايصال المياه الى أبنيته شرقي سور القادسية .

١٨ ـ غرائب «المشرعات» وصريخ المعتصم على القاطول

بناء على ما تقدم لا يسعنا إلا أن نرى فيما ذكرته دائرة الآثار العراقية على لسان مديرها العام معالي الدكتور ناجي الأصيل في مقال « مدينة المعتصم

---

(١) الـكهريز هو المجرى الذي يحفر على شكل نفق تحت الأرض لسحب المياه الجوفية به واسالتها الى الاراضي الزراعية سيحاً (راجع البحث التالي الخاص بنظام ري الـكهاريز في الفصل الخامس) .

(٢) راجع البحث التالي عن كهريز المتوكلية في الفصل التاسع .

على القاطول»[1] من أن خرائب «المشرحات» الواقعة على الضفة الشرقية للقاطول (مجرى القائم) من جملة بقايا قصر المعتصم تسرعاً ظاهراً وان استنتاجها هذا غير مبني على دلائل مقبولة سواء أكانت تاريخية أو واقعية. فلو كان امتد بناء المعتصم الى منطقة المشرحات الواقعة على الجانب الأيسر للقاطول (مجرى القائم) لما ذكر اليعقوبي بأن «المكان الذي انشأ فيه المعتصم أبنيته على القاطول ليس فيه سعة وان أراضيه متكونة من حصى وافهار بحيث يصعب البناء عليها»، لان البقعة التي في جهة المشرحات تؤلف أوسع بقعة من أراضي سامراء السهلة الخصبة التي تصلح لانشاء البساتين والدور وهي تقع بين القاطولين (القاطول الأعلى العكسروي وقاطول الرشيد الأسفل) فتمتد الى مسافة حوالي عشرين كيلومتراً في الطول وزهاء أربعة عشر كيلومتراً في العرض، ويمتاز موقع هذه البقعة بسهولة ايصال المياه اليها سيحاً من القاطول الاعلى. هذا كما ان منطقة «المشرحات» علاوة على سعتها تتكون من تربة خصبة ليس فيها حصى ولا افهار. ثم لو كان مشروع النهر الذي انشيء في تلك المنطقة لايصال المياه الى حصن القادسية[2] وبناء «المشرحات» من عمل المعتصم لما كان هناك ما يحمله على الانتقال الى سامراء ولا سيما وانه يتعذر انشاء مثل هذا المشروع الممتاز في أي مكان آخر من تلك المنطقة. كل ذلك يؤيد استنتاجنا المتقدم وهو ان المدينة التي شرع المعتصم في بنائها على القاطول ثم استبدل مكانها بموقع سامراء تقع على الضفة اليمنى لمجرى القائم في جوار «حصن القادسية» الذي كان قد انشأه الفرس من قبل، ممتدة من تلك الضفة غرباً الى نهر الصنم الاسفل (مجرى القاطول الشتوي) ثم الى ضفة نهر دجلة غربي نهر الصنم. اما موضع المشرحات فهو مكان قصر الرشيد بالاصل ثم انشيء فيه قصر الحير والبركة التي أمامه وهي البركة

---

(١) راجع ما تقدم في ص ٢٥١ـ٢٥٢

(٢) راجع البحث الذي تقدم عن النهر المذكور في ص ١٥٢ و ٢٤١ و ٢٤٩ـ٢٥٠

التي استخلصنا من تتبعاتنا انها بركة البحتري نفسها . وان أوضح دليل على أن قصر الحير والبركة من عمل المتوكل هو ان السور الذي يحيط بالمشرحات ، وهو السور الذي يضم حير الحيوانات وينتهي الى قصر المشرحات في الجنوب[١]، متصل في زاويته الجنوبية الغربية بالسور الذي يحوط مدينة سر من رأى من جهة الشرق ، فيتمد السور الأخير من الزاوية المذكورة الى قصر بركوارا غرباً ومن ثم الى جامع الملوية . وهناك من الدلائل أيضاً على ان النهر القديم الذي يتفرع من القاطول الاعلى وينتهي الى حصن القادسية اعيد حفره ، كما اعيد تنظيم مصدر مياهه في القاطول الاعلى على عهد المتوكل . وقد قام المتوكل بهذه الاعمال خلال الثلاث عشرة سنة التي قضاها في سامراء قبل أن ينتقل الى المتوكلية .

وأخيراً لا بد من الاشارة الى ما ورد من تناقض في مقال « مدينة المعتصم على القاطول » فبينما يزعم صاحب المقال ، وهو واثق كل الوثوق من استنتاجاته بأن « خرائب قصر المشرحات مع بركته والمباني القائمة على جانبيه ليست إلا المدينة التي ابتناها المعتصم على القاطول[٢] » يعود فيشكك فيما اعتبره استنتاجاً قاطعاً فيقول « واننا سننتهز الفرصة لاجراء تنقيبات علمية في بعض أقسام مدينة المعتصم لاظهار معالم القصر وغيره من الأبنية ، والاطلاع على دفائنها ، فلعل في ما تبطن ما يفصح عن سرّها ويؤيد ربطها بعصر الخليفة المعتصم بالله[٣]. »

---

(١) راجع البحث عن حير الحيوانات في الفصل السادس .

(٢) عدد تموز ١٩٤٧ من مجلة « سومر » ص ١٦٩

(٣) نفس المصدر ص ١٢٠